الجزء الأول

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً﴾ قرآن كريم: سورة النور آية: ٥٥

أبواب الجزء الأول

الباب الأول: الإسلام دين العلم والسلام لكل العالم.

الفصل الأول: الإسلام دين العلم والسلام لكل العالم.

الفصل الثاني: في الاقتصاد الإسلامي والأخلاق.

الباب الثاني: بين العقيدة والتطبيق الدقيق.

الفصل الأول: بين العقيدة والتطبيق الدقيق.

الفصل الثاني: التجارة بين الله والناس.

الباب الثالث: في التجارة وحرية السوق وسعر السوق

الباب الرابع: في التجارة العالمية والربا

الفصل الأول: التجارة العالمية.

الفصل الثالث: الربا.

الباب الأول

الفصل الأول

الإسلام دين العلم والسلام لكل العالم

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٣).

(لقد سبق للعرب أن فاقوا العالم في مرحلتين طويلتين من مراحل التقدم نحو ألفي سنة قبل أيام اليونان والرومان ثم في العصور الأخيرة، وليس ثمة ما يمنع هذه الشعوب من أن تقود العالم في المستقبل القريب أو البعيد)

"**جورج سارتون**"

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٨.

المبحث الأول

الإسلام دين العلم

ولد الإسلام في العلم في، ومنه أدلته وحججه على خصومه، وشريعته التي سادت بها الحضارة من ألف وأربعمائة عام، وستسود بها كل حضارة تتغيا رفعة شأن الإنسان، بالعلم والحرية والمساواة والعدل والتعاون بين البشر، والسلام لكل العالم.

بدأ الله تعالى وحيه بالعلم ليكون أساسا لرسالته الخاتمة الدائمة، وأنزل القرآن تبيانا لكل شيء، وأرسل رسوله ﷺ مبلغا له، ووعده بالنصر على الدين كله، وهو – جل ثناؤه – أول المعلمين ﴿ **عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ (٤). ﴿ **وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ** ﴾ (٥).

وهو سبحانه القائل: ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ** ﴾(٦).

وكان رسوله – عليه الصلاة والسلام – يقول "بعثت بالعلم" (٧) ويفتح أبواب العلم لأمته بقوله: "من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع" وقوله "قليل العلم خير من كثير العبادة" وقوله "من ظن أن العلم له غاية فقد بخسه ووضعه في غير منزلته التي وضعه الله فيها".

---

(٤) سورة العلق: الآية ٥.

(٥) سورة البقرة: الآية ٣١.

(٦) سورة آل عمران: الآية ١٨.

(٧) الأحاديث الواردة في هذا الكتاب واردة بنصها أو بمعناها في كتاب جامع الأحاديث للإمام السيوطي، وهو علامة القرنين التاسع والعاشر الهجريين، وعمدة جامع الأحاديث الكتب الستة موطأ مالك ومسند الإمام أحمد وصحيح ابن حيان ومسند الإمام الشافعي نحو ثمانين كتابا آخرها من مصنف عبد الرزق بن همام وابن أبي شيبة والترغيب لابن شاهين. ومسند أحمد وحده يحوي ثلاثين ألف حديث بعد حذف عشرة آلاف حديث مكررة، وفي أجزاء هذا الجامع بيانات عن الأحاديث الموضوعة.

وبالتعليم النبوي والأسوة الحسنة صار أصحاب الرسول معلمين للأمة، وأصبحت بيوتهم معاهدها، وأبناؤها أساتذتها كالعبادلة الأربعة وكحميد بن عبد الرحمن، ومن العلماء من كانوا موالي أمهات المؤمنين.

وكان حقا للعلم الإسلامي أن يكتب الخلود له بمنهج قرآني يحمل أعلامه ويطبق أحكامه قوم يعرفون حقيقة الخلق وقدرة الخالق، وتعمل به الحضارة في كل العصور.

في أول وحي نزل قال تبارك وتعالى لرسوله: ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ (٨).

والقراءة باسم الله الذي خلق الأكوان وعلم الإنسان تقديس له سبحانه، وإقرار بتوحيده وبسائر صفاته، والاحتجاج لها بالعلم استناد إلى الحجة المؤكدة ثم زادها توكيدا أول قسم في القرآن، وهو قسم بالقلم وبما يسطره، يشير إلى أن العلم أساس هذا الدين.

واستعمال العقل في أول إشارة واضحة إلى أن الإسلام قائم على الحجة، يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وبالاستقراء والاستنباط لتتأدى العقول بالعلل إلى المعلول.

وفي علوم القرآن والسنة واللغة العربية نتج كبار العلماء وصارت أصول الفقه أصولا للفكر الإسلامي كله ابتداء من الفقهاء في الجيل الأول حتى اليوم، ومرورا بالجيولوجيين والفلكيين والأطباء والمهندسين والكيميائيين والصيادلة والرياضيين في سائر الأجيال، بالرياضيات العربية اتسعت العمليات الحسابية لكل الأرقام، ولو بقي العالم على الأرقام اللاتينية لعجز عن العمليات الكبرى مثل حسابات الفلك، وبعلوم الضوء فتح العالم العربي الطريق لجاليليو وكوبرنيق وكبلر وعلماء الكون جميعا.

وليس غريبا أن نجد عبارات للشافعي (٢٠٤ هـ٩ من كتاب الرسالة أو كلمات للغزالي (٥٠٥ هـ - ١١١١م) وهو أصولي شافعي المذهب نجدها بذاتها عبارات لديكارت (١٦٥٠م) ونجد نظرية الأصنام الأربعة التي أجمل فيها فرنسيس بيكون (١٦٢٥) طريقته كاملة في كتابه (المنطق الجديد)، كمثل ما نجد نظرية الشك عند ديكارت، وانتقل المنهج الإسلامي بترجمة كتب

---

(٨) سورة العلق، ١ - ٥ وهي آيات خمسة تذكر الإنسان والعلم مرتين والقلم مرة ويجيء بعدها أخرى بأول قسم (نون والقلم وما يسطرون) لتدل أعظم دلالة باجتماعها على أنها تتآخى "حضارة إنسانية" ليكون الإنسان قادرا على التقدم وجديرا بخلافة الله في الأرض.

المسلمين في القرون الخمسة السابقة على حياة هذين العالمين، واشتغلت بترجماتها بضع عشرة جامعة أوربية، تعلمت فيها أوربة مناهج المسلمين، وهي تسميها الآن علم التجربة [٩].

يقول المستشرق نيكلسون عن القرون السبعة الأولى من التاريخ الإسلامي: (وكان لانبساط رقعة الدولة العباسية ووفرة ثروتها ورواج تجارتها أثر كبير في خلق نهضة ثقافية لم يشهدها الشرق من قبل، حتى لقد يرى الناس جميعا من الخليفة إلى أقل أفراد العامة شأنا طلابا للعلم، أو على الأقل أنصارا للأدب، وفي عهد الدولة العباسية – القرون الخمسة حتى السابع الهجري – كان الناس يجوبون ثلاث قارات سعيا وراء العلم والعرفان، ليعودوا إلى بلادهم كالنحل يحملون الشهد إلى جموع التلاميذ المثقفين، ثم يصنفون بفضل ما بذلوه من جهد متصل هذه المصنفات التي هي أشبه بدوائر المعارف، والتي لها أكبر الفضل في إيصال علوم المدينة إلينا بصورة غير متوقعة).

ويقول روجير بيكون – وقد عاش القرن الميلادي الثالث عشر حتى التسعينات منه – ما يعتبر شهادة عصر بكامله: (إن وجود الفكر الأوربي والعلم الأوربي كان مستحيلا لولا وجود المعارف العربية، لقد دعيت أوربة إلى الحياة بعد أن ظلت في ظلمات الجهل خمسة قرون، وهي مدينة للمعارف العربية بكل تقدمها).

بل يقول الملك الإنجليزي الذي كان يحكم نصف أوربة في القرن الحادي عشر عن حضارة الإسلام في الأندلس وعلومها: (من جورج الثاني ملك إنجلترا والغال (فرنسا) والنرويج إل الخليفة هشام الثالث [١٠] بعد التعظيم والتوقير، سمعنا عن الرقي العظيم الذي تتمتع بفيضه الصافي معاهد العلم في بلادكم العامرة، فأردنا اقتباس هذه الفضائل لنشر العلم في بلادنا، التي يحيطها الجهل من أركانها الأربعة، وقد وضعنا ابنة شقيقنا الأميرة دوبانت على رأس بعثة من بنات الأشراف الإنجليز – من خادمكم المطيع جورج) [١١].

وظلت كتب الرازي وابن سينا تدرس في جامعات أوربة حتى القرن السابع عشر للميلاد، وصورتاهما معلقتان في كلية الطب بباريس..

---

(٩) القرآن والمنهج العلمي المعاصر للمؤلف، الباب الرابع طبعة دار المعارف.

(١٠) حكم من ٤١٨ هـ إلى ٤٢٢ (أوائل القرن الحادي عشر الميلادي).

(١١) كتاب العرب عنصر السيادة في القرون الوسطى وأورد المؤرخ التركي عبد الرحمن شرف الدين في كتابه التاريخ العام ما صاحب الخطاب من هدايا الملك إلى هشام الثالث.

ولم يستطع التعصب الأوربي أو الفتك الصليبي أن يطمس الحقائق، حتى إذا خفت شدائد الاستعمار في القرن الحالي قرأنا قول برنارد لويس وهو مستشرق عنيد: إن أوربا في القرون الوسطى تحمل دينا مزدوجا للعرب، فهم الوسيلة التي انتقل بها إلى أوربا من العرب طريقة جديدة للبحث وضعت العقل فوق السلطة، ونادت بوجوب البحث المستقل والتجربة، وكان لهذين العاملين الفضل الكبير في القضاء على العصور الوسطى والإيذان بعصر النهضة.

المبحث الثاني

أسماء بعض العلماء من غير رجال الفقه وأصول الدين واللغة

وقد بلغ بهم التشريع الإسلامي وفقهه أعلى ذروة

١ – **جابر بن حيان:** (١٦١هـ/ ٧٧٨م) واضع أسس علم التجربة بتجاربه الكيميائية، والتاريخ يبايعه بأنه أول كيميائي، وفيه قول أكبر أطباء العصور الوسطى الرازي: أستاذنا جابر بن حيان.

٢ – **الخوارزمي:** (٢٢٥هـ/ ٨٥٥م) صاحب كتاب (الجبر والمقابلة) وقد نقل فيلاردي سنة ١٢٢٠ كتابا له في الحساب سماه (كارمن دي الجورزمي) وترجم كتاب الجبر والمقابلة بوشستر، ولفظ (لوغاريتم) تحريف للخوارزمي. وعن الخوارزمي عرفت أوربة الأرقام العددية وعلامة الصفر، وقد ظهرت في النقوش في إيطاليا فالنمسا فإنجلترا واسكتلندا، وكان البابا – سلفستروس (١٠٩٨ – ١٠٠٣) ممن عاونوا في ذلك، وهو من تلاميذ قرطبة.

٣ – **الكندي:** (١٧٥ – ٢٥٢هـ/ ٨٠١ – ٨٧٨م) له تجارب في الجاذبية الأرضية، ومؤلفات في المرئيات ونشأة الكواكب وتأثيرها على الأرض، وفي مؤلفاته كتب أن "كل ما في الفلك كروي الشكل" – وكتبه في أوربة منذ القرن الثاني عشر.

يقول عنه كاردانو (١٥٧٦): هو واحد من ١٢ عبقريا ظهروا في العالم. وروجير بيكون يضعه وابن الهيثم في الصف الأول مع بطليموس.

٤ – **الرازي الطبيب:** (٢٤٠ – ٣٢٠هـ/ ٨٦٤ – ٩٢٥م) يسميه الفرنجة جالينوس العرب والرازي أستاذ التجريب في الطب، ترجمت كتبه مبكرا لتبقى أسسا للطب ومرجعا مأخوذا به، اهتم بالتشريح، واتخذ البطاقة السريرية أساسا للعلاج في مستشفى الدولة، وهو أول من أجرى التجارب على القردة وأول من استعمل أمعاء الحيوان لخياطة الجروح، وأول من جعل الغذاء للمريض واجبا لمقاومة المرض حتى لا يحرم المرضى قوة المقاومة؛ ومن أصوله: ما اجتمع عليه الأطباء وعضدته التجربة فليكن إمامك.

٥ – **المسعودي:** (٣٤٩هـ/ ٩٥٦م) فلكي جيولوجي جغرافي مؤرخ أول من أثبت علاقة البيئة بالإنسان، وابن خلدون يسميه إمام المؤرخين، وقد تأثر به.

٦ – **الحسن بن الهيثم:** (٤٣٠هـ) بايع له العالم منذ القرن الثاني عشر الميلادي على أنه مكتشف علوم الضوء، وفي القرن السادس عشر ظهر علمه في كشوف الفلك. ألف في الرياضيات ٤٧ مؤلفا و٨ في الهندسة.

٧ – **ابن سينا:** (٣٧٥ – ٤٢٨/ ١٠٣٧م) فيلسوف. طبيب. جيولوجي. فقيه، ظلت كتبه الطبية تدرس حتى القرن السابع عشر في جامعات أوربة مع كتب الرازي ومنها كتابه القانون في الطب.

٨ – **البيروني:** (٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م) فلكي. رياضي. كيميائي. طبيعي. موسوعي، "أعلن أن الأرض متحركة حركة الرحى على محورها" وأن "الخلاء في باطن الأرض يمسك الناس حواليها" له كشوف في مقياس محيط الأرض، وفيه قول المستشرق الأمريكي أريوبوب: في أي قائمة تحوي أسماء العلماء يجب أن يكون لاسم البيروني مكانه الرفيع.. لمساهمته الرفيعة في جميع العلوم.

٩ – **الزهراوي:** (٣٢٦هـ/ ١٠١٣م) طبيب جراح، اشتهرت عملياته ونقتلها المستشفيات الإسلامية في الشرق والغرب.

١٠ – **ابن البيطار:** (٦٢٦هـ) له كتب في الأدوية والأغذية ما تزال مراجع العلم الحديث، ترجمت إلى الفرنسية ١٨٨٣ في باريس.

١١ – **النيفاشي:** (٦٥١هـ/ ١٣٢٥م) له تجارب تدرس في الجيولوجيا وله تصنيف للمعادن مأخوذ به للآن.

١٢ – **البغدادي:** (٦٤٩هـ) طبيب فقيه، صاحب تجارب خطأ بها جالينوس وأهل الطب من بعده، وأظهرت تجاربه في العقاقير القديمة أخطاء السابقين.

١٣ – **ابن النفيس:** (٦٧٨هـ/ ١٢٩١م) فقيه فيلسوف طبيب، تخرج من الأزهر ودرس في مدارسه فقه الشافعي، كما وضع السيرة الكاملية في السيرة النبوية، ومارس التشريح، وقال عن تجاربه الطبية. إنا نعتمد في تعرف حدود الأعضاء الباطنية على كلام من تقدمنا من المباشرين لهذا الأمر خاصة الفاضل جالينوس.. أما منافع كل واحد من الأعضاء فإنا نعتمد على ما يقتضيه النظر المحقق والبحث المستقيم، وافق ذلك من تقدمنا أو خالفه، وقد أدت أبحاثه في (القلب) إلى اكتشاف الدورة الدموية، وترجمت كتبه إلى اللاتينية وظهرت في إيطاليا ١٥٤٧ وظهرت بعد نشرها مؤلفات ثلاثة سنة ١٥٥٣ وسنة ١٥٣٩ وسنة ١٥٧٩ وتداولتها الجامعات

وكانت تنشرها جامعة بادوا حيث كان الطبيب الإنجليزي هارفي يتلقى دراسته، فلما عاد إلى إنجلترا أجرى تجاربه على خيول الملك، وأعلن الإنجليز أنه كشف الدورة الدموية سنة ١٦١٩.

١٤ – **الجاحظ:** (٢٥٥هـ/ ٨٦٨م) أديب، عالم، فيلسوف، جعل التجريب علما وأجرى فيه تجاربه، وشهد للإمام الشافعي حيث يقول فيه: "نظرت في كتب هؤلاء النبغة الذين نبغوا في العلم فلم أر أحسن تأليفا من الفتى المطلبي، كأن لسانه ينظم الدر"، وأصول القياس كما فصلتها رسالة الشافعي عن أصول الاجتهاد تعلن عدم اطمئنان من يجري القياس إلى نتائجه إلا بعد تحقيق متكامل لاستبعاد كل الشكوك.

والجاحظ يقول عن الشك: "تعلم الشك في المشكوك فيه تعلما. فلو لم يكن في ذلك إلا تعرف التوقف ثم التثبت، لقد كان ذلك مما يحتاج إليه". وله قول معروف: "إن مخالف ملة الإسلام من اليهود والنصارى، والدهرية إن كان معاندا فهو آثم، وإن نظر فعجز عن درك الحق فهو معذور غير آثم، وإن لم ينظر من حيث لم يعرف وجوب النظر فهو أيضا معذور غير آثم، وإن لم ينظر من حيث لم يعرف وجوب النظر فهو أيضا معذور، وإنما الآثم المعذب هو المعاند فقط، لأن الله تعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها، وقد عجزوا عن درك الحق ولزموا عقائدهم خوفا من الله تعالى إذ استد عليهم طريق المعرفة"، وقد ناقش الغزالي هذا القول في مؤلفين له.

١٥ – **الغزالي:** (٥٠٥ هـ/ ١١١١م) فقيه أصولي شافعي، له كتاب المستصفى في أصول الفقه، وله كتبه المتداولة الآن في التصوف والأخلاق وإحياء علوم الدين، ومن أصوله ما جاء في كتابه عن أغاليط النظار حيث قال: "وكثرة أغاليط النظار من التصديق بالمألوفات والمسموعات في الصبا من الأب والأستاذ وأهل البلد المشهورين بالفضل"، وسينقلها فرنسيس بيكون ويعبر عنها بأصنام الفكر الأربعة وفيها فساد اللغة، ومن أصوله: أن "من لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال، لأن الشكوك موصلة للحق"، وأن "الحقيقة نور يقذفه الله تعالى في الصدور، وهو مفتاح أكثر المعارف"، ومن عباراته ما نجده عند "ديكارت"، وكانت بعض أفكار الغزالي هدفا لابن رشد يصيبه بردوده، وقد تدخل في هذه المعركة توماس الإكويني فنقل فصولا من ردود ابن رشد، وكان توماس الإكويني على ثقافة عربية من صلات عائلته بالمسلمين. وما تزال أفكار الغزالي محلا للتقدير عند أهل أوربة وإن غلب ابن رشد.

١٦ – **وابن رشد:** (٥٢٠ – ٥٩٥هـ/ ١١٢٦ – ١١٩٨م) قاض – فقيه، فيلسوف، طبيب، ما يزال فقهه عمدة القضاء بكتابة "بداية المجتهد ونهاية المقتصد"، وهو يشتهر في أوربة

بأنه شارح أرسطو وبتمجيد العقل، وكان تحرره الفكري من أسباب نهضة الفكر الأوربي على رغم الكنيسة التي حرمت كتبه، ثم خضعت للرأي العام بعد قرن، وهو يرى العلم طريقا مؤكدا لإثبات الربوبية، ومن يشتغل بالتشريح يزدد إيمانا بالله تعالى، وأن ثمرات العقل ملك لكل البشر، وأن الحاكم الظالم يحكم الرعية لمصلحته لا لمصلحتها، وأن أفظع الظلم ظلم القساوسة، وأن المرأة مظلومة بعدم خروجها للعمل، وأنها تمثل ثلثي سكان المدن، فتعطيلها سبب شقاوة المدن.

١٧ – **وابن خلدون:** (٧٣٢ – ٨٠٨هـ/ ١٣٢٢ – ١٤٠٦م) قاض. وفقيه، ووزير، كشف بكتاب (ديوان العبر) للعالم علوم الاجتماع وما يتفرع عليها من حقائق التاريخ، وله في السياسة والاقتصاد مذاهب تقوم على الحرية والتزام الشريعة.

المبحث الثالث

القرآن والإعجاز العلمي في هذا القرن

بدأ في أوائل القرن الحالي كبير الأطباء المصريين عبد العزيز إسماعيل باشا دراساته الطبية، ومن بعده جاء الدكتور الغمراوي وقد تخصص في علوم الطبيعة والصيدلة، ففتح الطريق لفهم آيات القرآن في العلوم الطبيعية الصريحة، وجرى على غرارهما – في علم الفلك بمصر – الدكتور/ محمد جمال الدين الفندي. كما سجل العلم للطبيب الفرنسي بوكاي مشاركة كبيرة في هذا الشأن وتتابعت عناية الأمم بالأمر إذ ترجمت كتابات بوكاي إلى اللغات الحديثة.

وما زال يضاف إليها كشوف عن الإعجاز الطبي أو الفلكي أو الجيولوجي أو الكيماوي أو الطبيعي تزخر بها الآيات الكريمة في أمهات المسائل العلمية كخلق الأكوان، وخلق الإنسان وقوانين الزوجية في الإنسان والنبات والحيوان، وفي كل شيء من الذرة إلى المجرة، وقوانين الجاذبية أو القوانين الفلكية ووجود الماء في كل شيء حي. وغير ذلك من المكتشفات الحديثة، وحفل النصف الأخير من القرن الحالي بالمؤتمرات العالمية والإسلامية الطبية أو العلمية بكشوف عن المسلمات العلمية الواردة بالقرآن الكريم، وإليك أمثالا من أعمال الأساتذة الذين سبقت الإشارة إليهم:

أولا: الطبيب عبد العزيز إسماعيل باشا الأستاذ بكلية الطب جامعة القاهرة: قدم لمؤلفه (الإسلام والطب الحديث) شيخ الإسلام محمد مصطفى المراغي في الثلاثينات راجيا (أن يحتذي أصحاب النبوغ في فروع العلم شاكلته، كل فيما تخصص فيه لفائدة النابتة الحديثة التي نود أن تجد في كتاب الله ما يؤثر على عقليتها من أخص ما تشتغل به في دراستها، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا).

حدد المؤلف منهجه في تقديمه لكتابه بقوله (القرآن ليس بكتاب طب أو هندسة أو غير ذلك، ولكنه يشير أحيانا إلى "سنن طبيعية" ترجع إلى هذه العلوم، فقوله تعالى: ﴿ **وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ** ﴾ (الإسراء: ٤٤) لا يمكن أن يكون الأولون قد فهموها إلا عن طريق التأويل المؤدي إلى خضوع كل شيء لعظمة الله، حتى الجماد، مع أن علماء الطبيعة يثبتون الآن حركة دائمة لا تنقطع في ذرات كل شيء تراه العين، ولا تحس به سائر المشاعر.

وقوله تعالى: ﴿ **خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ** ﴾ [١٢] (العلق: ٢) شبه الحيوان المنوي بالعلق، مع أنه لا يرى إلا بالميكرسكوب، والعبرة من هذه الآية لم تظهر وقت نزولها ولا بعده بمئات السنين حتى اكتشف الميكروسكوب ولا يفهم معناها الحقيقي إلا من درس العلوم الحديثة يظهر له إعجاز القرآن بطريقة أقرب إلى إقناعه من الفصاحة، لأنه عالم ببعض العلوم وجاهل بالفصاحة.

ثم تصدى لأربع وثلاثين كلية من الكليات العلمية أولها (الحياة تحت ضوء القرآن)، مبينا (أن كل شيء حي يهلك من الجفاف، ويحيا بالماء، وأن أفضلية المواد المشار إليها هي في نوع المواد الزلالية وكميتها)، وأن هذا (قد ظهر من أبحاث لجنة الأبحاث الملكية بإنجلترا في التقرير الثالث سنة ١٩٣٣م والأخيرة..)

وتحت عنوان (أسرار الصيام الطبية) قال: (للصيام فوائد في ثلاث جهات، أولها وأهمها الجهة الروحية وهذه أتركها لعلماء الدين.. وثانيتها: الجهة الأخلاقية وهذه أتركها لعلماء الأخلاق. وثالثتها وأقلها أهمية: الجهة المادية أو الصحية وهذه محل بحثنا.. فالعلاج يستعمل في..) وبعد الحديث عن صنوف سبعة من الأمراض يقول: (وهذه الأمراض تنتشر بزيادة الحضارة والترف، وفي مصر يكاد يكون البول السكري، وزيادة ضغط الدم مقتصرين على الطبقات الوسطى والعليا وقليل جدا من الفقراء، ويغلب على الظن أن ذلك هو السر في أن الصيام في الإسلام أشد منه في الأديان السابقة، لأن الإسلام.. جاء في زمن تحتاج فيه إلى وقاية من أمراض تزداد كلما زاد الترف..).

وتحت عنوان (الخمر وأضرارها) يخص الكلام بالبحث الطبي لا الاقتصادي أو الخلقي.

ويقول في مدة الرضاعة (إنها يجب أن تكون فوق السنة، ويستحسن أن تكون سنتين كاملتين كالنص في الآية: ﴿ **وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ** ﴾ (البقرة: ٢٣٣) وهي حقيقة يجمع عليها الأطباء الآن.

وتحت عنوان (النوم وضرورته للحياة) يشرح الآية ٢٥٥ من سورة البقرة ﴿ **لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ** ﴾.

---

(١٢) العلقة: اسم من فعل (العلوق) بالبويضة: وهو أول ما تسعى إليه بدأت نطفة الذكر في رحم الأنثى، وستقرأ تفصيلا عن خلق الإنسان في (علم الأجنة) في ضوء مكتشفات النصف الثاني من القرن العشرين للميلاد.

وتحت عنوان (أضرار الربا) الآية ٢٧٨ من السورة يتكلم أيضا عن الأضرار الطبية تاركا ما عداها لعلماء التشريع والاقتصاد.

ثم يشرح قوله تعالى: ﴿ **تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ (آل عمران: ٢٧) فينبئنا أن التفسير الحقيقي هو إخراج الحي من الميت كما يحصل يوميا من أن الحي ينمو بأكل أشياء ميتة، فالصغير مثلا يكبر جسمه بتغذية اللبن أو غيره، وأما إخراج الميت من الحي فهو الإفرازات، مثل اللبن.

وتحت عنوان (حكمة الوضوء وفوائده الطبية) يقول شرحا للآية ٦ من سورة المائدة: (إنها استجماع للقوى العقلية يهيئ النفس للخشوع – كالاستراحة بين محاضرتين – وفوائدها كثيرة من النظافة المتجددة ومقاومة الطفيليات..).

وفي شرح الآية ١٤٣ من سورة الأعراف: ﴿ **وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي..**﴾.

قال: إن الإنسان تنقصه الحواس التي يرى بها الله – جل وعلا – ولذلك أمر الله – تعالى – سيدنا موسى بأن يرى تأثير القدرة الإلهية في دك الجبل.

وفي تفسير قوله – تعالى – في سورة الأنفال ٦٣: ﴿ **وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ..**﴾ يقول: (قد تكون الكراهة والألفة من "العواطف الحيوانية المنفعلة التي تنتج من أسباب ظاهرية تتكرر فتحدث تغييرات عضوية في أعضاء الجسم – وخصوصا المخ والغدد الصماء، وتحدث هذه التغييرات – مع التكرار – أمراضا عضوية.. ومهما جاهد الشخص في أن يغير من عاطفته لا يفلح..).

وتحت عنوان (التفكير وخلايا المخ) يقول في شرح سورة هود، الآية ٥ ﴿ **أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ** ﴾ هذه الآية سهلة الفهم بعدما تقدمت علوم النفس والتنويم المغناطيس وغيرها، وظهر جليا أن كل فكرة يقابلها تغيير مخي في الخلايا المخية.. وقد اكتشفت أخيرا أجهزة كهربائية يمكن بها معرفة حالة بعض الخلايا المخية..).

وتكلم عن (القرآن ولقاح الأزهار والنبات) في الآية ٢٢ من سورة الحجر ﴿ **وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ** ﴾. والقرآن يتكلم عن

فائدة من فوائد الهواء الذي ينقل نطفة الذكر إلى الأنثى قبل أن يتقدم علم تشريح النبات بقرون طويلة.

كما يتكلم عن (العسل في القرآن والطب الحديث) في قوله – تعالى – ﴿ **ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ (سورة النحل الآية ٦٩).. فبين أن الجلوكوز نسبته في العسل أكثر من أي غذاء آخر، وهو سلاح للطبيب (في أغلب الأمراض) واستعماله في ازدياد مستمر يتقدم الطب، وهو يعطى للمريض بشتى الطرق وفي أمراض كثيرة متباينة، وللتقوية، وضد التسمم من كل المصادر، وللتسمم البولي والكبدي والمعدي، والحميات بأنواعها، وحالات ضعف القلب، والذبحة والارتشاحات وفي احتقان المخ وأدرانه في حين لا يستعمل الغذاء علاجا إلا فيما ندر من أمراض نقص الغذاء، والفواكه سكرها ليس من سكر العسل ونسبة سكرها ضئيلة وسكر العسل يستعمل مع الأنسولين أحيانا. ودوائر الشفاء بعسل النحل تتزايد باستمرار.

وتحت عنوان (القرآن وبدء الخلق والحياة والموت) بدأ بالآية ٥ من سورة الحج وأعقبها بغيرها من الآيات نيفت على الثلاثين، وقال: (إن فيها جوابا عن الأسئلة الأربعة "بدء الخلق"، و"تطورات الجنين"، و"حياة الإنسان على الأرض"، و"بعد الموت"، و"النشأة الثانية".

ثانيا: الدكتور محمد أحمد الغمراوي (يونيو ١٨٩٣/ مايو ١٩٧١م) لم يكد يتخرج من مدرسة المعلمين العليا سنة ١٩١٤م حتى شارك في لجنة الترجمة والنشر أحمد أمين ومحمد خلاف وأحمد حسن الزيات وأحمد زكي باشا (مدير الجامعة).

رجع من بعثة العلوم والصيدلة ثم صار أستاذا في كلية الصيدلة بالجامعة، ثم ألقى دروسه القرآنية في "كلية أصول الدين بالأزهر" ونشر بحوثه في الصحف، وفي مجموعة مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر سنة ١٩٧٠م، وبعد وفاته جمع زميله في البعثة د. أحمد عبد السلام الكرداني وكيل وزارة المعارف مقالاته في كتاب سماه (الإسلام في عصر العلم) ثم قدم الكتاب للقراء الإمام الأكبر الشيخ/ عبد الحليم محمود، وشارك في التقديم الدكتور/ عبد العزيز كامل نائب رئيس الوزراء.

وروى الدكتور الكرداني قول شيخ الأزهر له في الثلاثينات من القرن: (لولا أن لائحة الأزهر لا تسمح بمنح إجازة العالمية لغير الخريجين لمنحناك الإجازة الفخرية)، وفي عام ١٩٦٠ دعي إلى السعودية ليؤسس كلية الصيدلة بجامعة الرياض، فأسسها وتولى التدريس فيها وعمارتها لمدة ثلاث سنوات وعهد الأزهر إليه بالتدريس في كلية أصول الدين، في عهديها القديم والحديث،

وفي السنوات الأخيرة كان يدرس لطلبة الدراسات العليا بالكلية ذاتها، ثم طبعت له لجنة التأليف والترجمة والنشر بعض المحاضرات في سنن الله الكونية في تفسير الآيات الكونية ومقارنتها بأحدث الحقائق العلمية، قاصدا بيان أمور منها:

١ – موافقة أحدث الحقائق العلمية للقرآن.

٢ – التنبؤ في كثير من الآيات بما ظهر من "حقائق" علمية.

٣ – إن القرآن يخاطب الناس على قدر عقولهم دون مخالفة للحقائق العلمية، حتى إذا قيض الله لبعض أن يفهموا "حقائق" حديثة وجدوها صريحة في القرآن ذاته.

وحفلت مجلة الأزهر من قديم بأبحاثه، ومنها سلاسل تحت عنوان (دلالة القرآن على نفسه أنه من عند الله) (والسماء في القرآن وفي العلم) و(الجبال في القرآن) ودونت للطلبة في كراستين، واحدة بعنوان "إسلاميات" والأخرى بعنوان (سنن كونية).

أضاف الدكتور الكرداني أنه أرسل بعض ما جاء بهذا المجهود إلى صديق له بأمريكا قائلا: (لقد أعزني الله فوفقني إلى اختيار نماذج من الآيات المتضمنة طرفا من الإعجاز العلمي للقرآن، وترجمتها إلى "الإنجليزية" وأهديتها للسيد صلاح الضرير مدير المركز الإسلامي بمدينة برمنجهام بولاية ألاباما الأمريكية، فطبعها ونشرها هنالك).

يقول الدكتور الغمراوي في كتاب (الإسلام في عصر العلم) صفحة ١٦١: (فلو قدر للإنسانية أن تفحص الأديان بعقلية علمية لما وجدت غير الإسلام دينا يثبت للفحص العلمي، إذ ليس غير الإسلام دين بقيت معجزته إلى اليوم، وتبقى إلى ما شاء الله، لتكون موضوع بحث وامتحان وفحص..).

ويقول في صفحة ١٦٨: (فتعدد نواحي الإعجاز في القرآن معجزة، بل كثيرا ما يكون بعض الآية معجزا..)، ويستطرد في وجوه إعجاز بالعشرات تتفرع عليها أمثالها، ونقف قليلا عند وجه "عظمة القرآن مهيمنا على الكتب قبله"، حيث يذكر قوله تعالى: ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ** ﴾ (١٣).

---

(١٣) سورة المائدة، الآية ٤٨.

ويقول في صفحة ١٨١: (وأمثلة هيمنة القرآن على التوراة كثيرة خصوصا في سفر التكوين [١٤]، ففيه أمور كثيرة يصححها القرآن، منها أن حواء هي التي حملت آدم على الأكل من الشجرة، وأن الذي وسوس لحواء وحملها على الأكل من الشجرة قبل آدم هي الحية.. ولكن القرآن لا يذكر الحية، ولا يحمل حواء وزر البدء بالأكل من الشجرة خلافا لما أمر الله، بل مفهوم آية سورة طه أن آدم هو الذي اقتنع أولا بالأكل طلبا للخلود بإغواء الشيطان وتزيينه، وأن زوجه – ولم تذكر باسمها قط في القرآن – فهي على أسوأ تقدير، أكلت معه إن لم تكن أكلت بعده.. (سورة طه ١٢٠) والشيطان وسوس إلى زوج آدم أيضا (سورة طه ١٢١، ١٢٢) لكن ليس في القرآن الكريم آية تخص زوج آدم بالوسوسة أو تنسب الوسوسة والإغراء بالشجرة إلى غير الشيطان (فالقرآن في هذا المثل مهيمن على التوراة ومصحح لما جاء في سفر التكوين، ومنقذ للمرأة مما نسب إليها)، واستطرد لتصحيحات أخرى خطيرة خطرة اتهام حواء [١٥].

وسنكتفي الآن بعجالة وجيزة مما أفاض فيه المؤلف، نختار منها ما ورد في الكتاب الرابع "من كتب" هذا المؤلف، بعنوان (من الإعجاز العلمي للقرآن)، وهذا الكتاب وحده في مائتي صفحة يبدأ من ص ٢٥٥ وينتهي ص ٤٥١ وفيه وحده فصول خمسة تكفينا هنا لإدراك ما في سائر الكتاب:

الأول: (القرآن والعلم) والثاني: (في تفسير الآيات الكونية في القرآن) والثالث: (الجبال في القرآن) والرابع: (السماء في القرآن) والخامس: (الظواهر الجوية في القرآن) والسادس: (مخترعات العلم والقرآن).

في الفصل الأول يقول: إن الإعجاز هو (تجديد للرسالة الإسلامية، كأنما رسول الإسلام قائم في كل عصر يدعو الناس إلى دين الله ويريهم دليلا على صدقه.. يعجز الإلحاد عن التشكيك فيه إلا أن يتبرأ من العقل، فإن الحقيقة العلمية التي لم تعرفها الإنسانية إلا في القرن التاسع عشر والعشرين مثلا والتي ذكرها القرآن لابد أن تقوم عند كل ذي عقل دليلا محسوسا

---

(١٤) أول أسفار التوراة وهي في نيف وثمانين صفحة، وخمسين إصحاحا، وسنعرض لبعض ذلك منقولا من الكتاب الأشهر للدكتور/ بوكاي.

(١٥) انظر كيف ترتب على هذا الخطأ على مدى عشرين قرنا عند أصحاب الديانات غير الإسلام، كر، المرأة إلى نفسها وإلى الخلق وتدنيسها، حتى جاء الإسلام ليعوضها عما سلف عليها من ظلم، فيرفع الإصر عنها ويسويها بالرجل ويحيطها بمزايا خاصة وبمعاملة يضرب المثل بها في الاحترام والإنصاف. والمرأة نصف الناس.

على أن خالق هذه الحقيقة هو منزل القرآن..)، ويقول: (ينبغي ألا نفسر كونيات القرآن إلى باليقين الثابت من العلم.. إن الحقائق هي سبيل التفسير الحق، هي كلمات الله الكونية، أي: قوانينه، يجب أن تفسر بها نظائرها من كلمات الله القرآنية).

يبدأ المؤلف بما بدأ به المصحف الشريف ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ ويقول (والجديد هنا أنه أيد وجود عوالم أخرى بما أشار إليه (فصل الحياة في العوالم الأخرى) للفلكي الإنجليزي (جونز) وأضاف عن معجزات خلق السموات والأرض: أول ما يطالعنا آيات في سورة فصلت تتعلق بالموضوع (الآيات من ٩ – ١٢) عن خلق الكون: ﴿ **قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢)** ﴾ وأتبعها بالآية ١٢ من سورة الطلاق ﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ..** ﴾ وأتبعها بالآية ٣٠ من سورة الأنبياء ﴿ **أَوَلَمْ يَرَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا** ﴾ وانتهى في هذا البيان إلى وجود حقائق هي معجزات يقينية يستيقنها العلم الآن. منها:

١ – تعدد العوالم فلكيا.

٢ – دخانية السماء في البدء.

٣ – انفصال الأرض عن السماء..

ولو عاش المؤلف بضع سنوات لرأى الإنسان ينفذ إلى السماء، وينزل على أرض القمر، ويعود بقطع من أرضه يجري تحليلها فيظهر أن مادتها كمادة الأرض، وأورد المؤلف بيان المعجزات عن دوران الشمس والقمر تحت عنوان (القرآن والعلم) الآية ٣٨ من سورة يس: ﴿ **وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** ﴾ وذكر أنها تجري فعلا بسرعة ١٢ ميلا

في الثانية في اتجاه مخصوص كما ثبت علميا في العصور الأخيرة [١٦] وعلى هذا النحو يستمر سائر الكتاب.

---

(١٦) نزلت سورة يس بمكة، والإسلام في أول عهده والمسلمون قلة، وعنها يقول رسول الله – ﷺ – كما يروي صاحبه أنس بن مالك "إن لكل شيء قلبا، وقلب القرآن سورة يس" ومن مأثور القول: إن من قرأها يبتغي بها وجه الله – عز وجل – غفر الله له كأنما قرأ القرآن اثنتي عشرة مرة..

والقرآن يظهر في كل يوم معارف غضة حسبما يهدي الله بعلمه قارئه أو سامعه، ومنها الاجتماعي حيث الفضائل مسيطرة، فإن قلت أو ندرت تأخر المجتمع، ومنها العلمي، والعلم رافد ضخم من روافد التقدم ومن ذلك يفاجئ الكتاب الكريم عصور التقديم العلمي بما شاء الله – تعالى – أن يظهر عليه البشرية من علوم لا تقدر على إدراكها إلا إذا بلغت درجة خاصة، ومنها الزوجية في الأشياء ودوران الفلك والجاذبية الكونية، ويظهر لنا الآن في العلوم حيث المخلوقات التي نشأت بها عوالم النجوم والكواكب، ومنها الشمس والقمر، وقد تقدمت علوم الفلك باكتشافات كوبرنيق وكيلز وجاليليو من قرون ثلاثة حتى استقرت على حقائق سبقت بتأكيدها آيات القرآن..

ومن أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن بدأ العالم مرحلة كشف (حول الإنسان وخلقه)، وظهر لهم أن خصائص خلق الإنسان قد صرحت بها آيات القرآن بالعشرات، وفصلتها في أصلاب الرجال والنساء إلى الزواج والحمل والولادة، وبهذا عرف البشر السند الإلهي لخلق السموات والأرض وما بينهما، ونشاط النجوم والكواكب في الأفلاك والإنسان والنبات والحيوان والجمادات.. وفي سورة يس ٨٣ أية منها ٨ آيات متتابعة تحوي أعظم الأسرار لأعظم الأجرام المعلومة لنا من الآية ٣٣ إلى الآية ٤٠، والآية ٨٠ من السورة تحوي معجزة علوم لم يفطن لها العالم إلا في العصر الأخير، أما الثمانية المتتابعة فتعلن لنا.

١ – أنه تعالى يخلق النبات – وفيه حياة – من الأرض التي ليس لها روح.

٢ – ويفجر منها العيون والجنات التي يحيا بها الناس.

٣ – أنه سبحانه خلق – ويخلق – من كل شيء زوجين سواء النبات أو الإنسان أو مما لا يعلم الناس من أشياء.

٤ – وأن الظلام في الكون أصل وأن النهار ينسلخ منه.

٥ – وأن الشمس تجري في فلكها.

٦ – وأن القمر يجري في منازل شتى حول الأرض ومعها حول الشمس.

٧ – وأنه تعالى قدر لكل جرم فلكه.

٨ – وفي الآية ٨٠ يعلن أن الشجر الأخضر – وحده – هو الذي تشتعل فيه النار.. وهذه الآيات الكريمة لا تزيد عن محتويات صفحة واحدة؟!! وفيها معجزات بالعشرات عن الأكوان من أرضين وسموات وشمس وقمر!! ومن الماء كل شيء حي، وفي الإنسان ما لا حصر له من معجزات.

يقول الدكتور الغمراوي في الفصل الأول من الكتاب الرابع – وهو فصل يقع في مائة صفحة: (والواقع أن موضوع إعجاز القرآن لا يزال بكرا برغم ما كتب فيه) جاء علم الفلك الحديث فبين أن المجموعة الشمسية التي نحن فيها ليست في عالم المجرات شيئا مذكورا، فثمة عوالم من مجرات أخرى تعد بالملايين.

وتكلم عن خلق السموات والأرض، فهذه سموات وأرضون وبنيان بعد بنيان، وفي سورة يس آيات كل منها تخص حركة نجم كالشمس أو كوكب كالقمر أو الأرض لها دورة حول الشمس بالقمر، ومثلا آخر من مواقع النجوم، وآخر من إدبار الليل.

ويستمر تعداد المعجزات الفلكية والجيولوجية وما إليها ويضيق المقام من عرضها واحدة واحدة.

وسترى الطبيب الفرنسي بوكاي يستأنف بحوثا أكثرها في حدودها ذاتها.

وكان الإمام محمد عبده – كما فصل الدكتور الغمراوي – يؤكد حقيقة (الجاذبية الكونية) في تفسير الجاذبية العامة حيث قوله – تعالى – عن السماء إنه رفعها (بغير عمد ترونها) وما هي إلا جاذبية النجوم والكواكب في العالم.

ونبه الغمراوي على أن بالقرآن (٨٠٠) ثمانمائة آية يتوقف على فهمها تيسير الدعوة إلى دين الله في هذا العصر كحديث البصمة التي لا تتكرر في البشر.

ثم يتطرق إلى باب تال يعقده (للجبال في القرآن) فهذه عشرات من الآيات تحتوي على معجزات، ومنها امتداد الأرض، ومنها وتدية الجبال وإرساؤها، والجبال من قاع المحيط ومن تحته والجبال في حركة الأرض، وفي فصل تال يتكلم عن حقائق السماء في القرآن.

وفي كل سماء (تسبح) أجرام السماء وينتقل إلى الظواهر الجوية في القرآن: من سحاب، ومطر، وكهرباء الهواء وشحناتها، والبرق والرعد، والصواعق وتلقيح الرياح وعملها في حدوث المطر.

وينتقل إلى النبات والحياة في النبات، وفي الحيوان، وعن أصل الخضرة في الشجر لحدوث النار، ويشير إلى الآية ٨٠ من سورة يس.

وفي فصل تال يتكلم عن القمر الصناعي ومخترعات العصور التي تندرج جميعا تحت نصوص الله في كتابه، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ **مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ**﴾[١٧].

ثالثا: الطبيب الفرنسي بوكاي:

أولا: للطبيب الفرنسي كتابان عظيما الشأن باللغة الفرنسية في هذا المضمار.

أولهما بعنوان: (دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة)، واسمه الفرنسي (الكتاب المقدس والقرآن والعلم) ١٩٧٦م، سلك فيه مسلك الغمراوي في تفسير (أيام الله) كمراحل (لخلق الكون) وقد اعتمد على نص القرآن على أن من أيام الله ما يقدر بخمسين ألف سنة وبهذا تصبح الأيم الستة ٣٠٠ ألف سنة وبه يصح تفسير انشقاق السموات والأرض وظهور المخلوقات من نبات وحيوان وإنسان. كما تناولت أبحاث بوكاي.

١ – خلق الإنسان.

٢ – أن العالم يتسع ويتمدد.

٣ – أن الكون كروي دوار.

٤ – أن وحداته منجذبة إلى ما تدور حوله بنظام لا يحتمل أي خلل.

٥ – أن الشمس تجري لمستقر لها، والقمر يجري في فلكه حول الأرض، وأن الأرض كرة تدور حول نفسها وحول الشمس، ومن ذلك النور والظلام، وأن الظلام هو الأصل.

٦ – أن الجاذبية الفلكية والأرضية تحكم الصلات بين الأفلاك وبين الأشياء بغير عمد يراها الناس.

٧ – أن الزوجية قائمة في كل شيء كحقيقة كونية – من الذرة إلى المجرة – الإنسان والحيوان والنبات، وفيما لا نعلم من الأشياء.

٨ – أن سنن الله مطلقة، من اتبعها ظفر، ومن خالفها خسر، وهي سنن تجعل كل شيء في موضعه من موازين الله، لا يملك أحد لها تبديلا.

---

(١٧) سورة الأنعام، الآية ٣٨.

٩ – أن الماء ضرورة للحياة.

١٠ – أن نسبة الماء على وجه الأرض ضرورة للتوازن، ولإحداث دورة الماء العذب الذي تحتاج إليه الحياة.

١١ – للجبال والمحيطات والرياح والأنهار والبحار أدوار أساسية في تطويع العناصر لتيسير الحياة وضبط المسار.

١٢ – غزو الفضاء.

١٣ – أصل الحياة.

١٤ – النبات.

ثانيهما: كتاب بعنوان: ما أصل الإنسان؟ وعمر الحياة الإنسانية (التناسل الإنساني في القرآن) [١٨]

وترجم الكتاب الأول من الفرنسية إلى الإنجليزية والعربية والتركية والفارسية والصربوكرواتية والأندونيسية والأردية والكرواتية، وطبع حتى ١٩٨٥م اثنتي عشرة طبعة.

وأعقب هذا الكتاب بكتاب (ما أصل الإنسان؟).

ناقش في الفصل الثالث منه إجابة الكتب المقدسة (التوراة والإنجيل).

وناقش في الفصل الرابع (أصل الإنسان والتحولات التي طرأت عليه وتناسله وفقا للقرآن).

وقال في تقديمه لكتابه هذا: (إن ما جاء بالقرآن عن بيان أصل الإنسان سوف يثير دهشة كثير من الناس تماما كما أدهشني أنا أيضا حين اكتشفته أول مرة، وفوق ذلك فإن مقارنة النصوص القرآنية والتوراتية والإنجيلية تكشف عن ذلك بسورة أوضح، فكلاهما يتحدث عن الله الخالق، إلا أن التفصيلات التي أوردتها التوراة في وصف الخلق – وهي غير مقبولة علميا – لا وجود لها في القرآن، أما القرآن فيحتوي حقا على آيات بينات عن خلق الإنسان تدعو إلى العجب وإعمال العقل، ويستحيل تفسير هذه المعلومات بالمنطق البشري إذا وضعنا في اعتبارنا

---

(١٨) ترجمة مكتب التربية العربي لدول الخليج.

مستوى المعارف التي كانت سائدة وقت نزول القرآن، أما بالنسبة للغرب فلم يسبق له أن تناول هذه الآيات البينات التناول العلمي حتى التاسع من نوفمبر ١٩٧٦م وذلك حين قدمت إلى الأكاديمية الطبية الوطنية الفرنسية بحثا عن المعطيات في كل من علم وظائف الأعضاء، وعلم الأجنة التي عرض لها القرآن منذ ١٤ قرنا سبقت الاكتشافات العلمية الحديثة..) [١٩].

وقال في خواتيم الكتاب تحت عنوان (تطور الكائنات الحية حالة خاصة داخل التطور العالم للكون)[٢٠]: (وقد كيف قساوسة المعبد المقدس المفهوم البدائي للخلق مع أغراضهم الخاصة عند كتابة النسخة الكهنوتية في القرن السادس قبل الميلاد، فنمقوا قصصهم بتفاصيل ثبت فيما بعد زيفها وخرافيتها.. وقد وصل القرآن إلى الإنسان في القرن السابع بعد الميلاد، وهو يشير إلى خلق العالم وظهور الإنسان على الأرض.. فلا توجد في القرآن الأخطاء الموجودة في التوراة، فهو يقدم معلومات معينة تعتبر اليوم مفاجأة لأناس كثيرين في الغرب).

وفي ص ١٣٦ من كتاب: (دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة) طبعة دار المعارف لبنان ينبئ الدكتور بوكاي القارئ نبأ (وثيقة صادرة عن سكرتارية الفاتيكان لشئون غير المسيحيين) توجيهات لإقامة حوار بين المسيحيين والمسلمين في الطبعة الثالثة لها عام ١٩٧٠ فيها ما يلي: "علينا أن نهتم أولا بأن نغير تدريجيا من عقلية إخواننا المسيحيين، فذلك قبل كل شيء"، "ويجب التخلي عن الصورة البالية التي ورثنا الماضي إياها، شوهتها الفريات والأحكام المسبقة"، "كما يجب الاعتراف بالمظالم التي ارتكبها الغرب المسيحي في حق المسلمين".

وفي ص ١٤٠ يذكر أن الإسلام "إلى جانب أنه يدعو إلى المواظبة على الاشتغال بالعلم، فإنه يحتوى أيضا على تأملات عديدة خاصة بالظاهرات الطبيعية، وبتفاصيل توضيحية تتفق تماما مع معطيات العلم الحديث".

ويقول في الصفحة ١٤٤: (لقد أثارت هذه الجوانب العلمية التي يختص بها القرآن دهشتي العميقة في البداية، فلم أكن أعتقد قط بإمكان اكتشاف عدد كبير إلى هذا الحد من الدعاوى الخاصة بموضوعات شديدة التنوع، ومطابقة تماما للمعارف العلمية الحديثة).

---

(١٩) ص ٢١.

(٢٠) ص ٢٢٩ – ٢٣٠.

ثم يقول في ص ١٤٤: (وسأظل مدينا بالعرفان – وبشكل لا حد له – للمغفور له جلالة الملك فيصل [٢١] الذي أحيي ذكره باحترام عميق سيظل محفورا في ذاكرتي دائما أن كان لي

---

(٢١) كان الملك فيصل بن عبد العزيز ١٣٨٣ إلى ١٣٩٥هـ/ ١٩٦٤ – ١٩٧٥م عالما ورجل سياسة في أعلى درجة، قرأ القرآن على جده لأمه قاضي قضاة نجد عبد الله بن حسن حفيد الإمام محمد بن عبد الوهاب وحيي حياة زاهدة لا طاقة بها للملوك فكان رجل عالمين عالم الدنيا، وعالم الدين، وإليه يرجع الفضل فيما بلغته المملكة، وكان عونا على النهضة المعاصرة للجامعة بالمملكة، وبالصناعات والزراعات، وتعليم المرأة، وجالد الأمم الأوربية مجالدة رجل نتج في السياسة، وكان من قواد أبيه، مدة حكمه، وفي يده جادت السماء على المملكة بكشوف بترولية هائلة.

والشهادة للملك من الدكتور بوكاي تذكرنا بأنه كان عليما بما أوجده الدكتور الغمراوي في مصر ثم في المملكة من علوم القرآن، وكان كبار العلماء في الفقه من علماء الأزهر والسياسة من الدول العربية في حاشية الملك، وما يزالون مستشارين للمملكة، منهم الدكتور الدواليبي من أساتذة الشريعة الإسلامية، وهو رئيس سابق للدولة في سوريا، وأستاذ سابق للشريعة الإسلامية في جامعة دمشق وهو الآن عضو بمجمع الفقه الإسلامي بجدة وكان أحد القطبين في مؤتمر الفقه الإسلامي بباريس سنة ١٩٥١ كما سيرد ذكره بالباب الرابع في بحث الربا.

واستقراء نصوص القرآن وتفسيرها في عمل الدكتور الغمراوي حصاد حياة بتمامها، في بيئة قرآنية يقول عنها د. الكرداني جامع كتابه (حفظ القرآن كله بمدينة (زفتى) ليلتحق بالأزهر الشريف مثل إخوته كان الرابع بين (إخوة خمسة) ولكن خاله رأى أن يكون أحد الأبناء طالبا للعلوم الحديثة.. والتحقنا بالقسم العلمي بمدرسة المعلمين العليا، وتخرجنا منها عام ١٩١٤م. كان يعيش أثناء دراسته بالقاهرة بين إخوته الذين التحقوا بالأزهر الشريف.. مدرسا بالمدارس الثانوية للجمعية الخيرية الإسلامية حتى كان عام ١٩١٦ فسمح له بالسفر للتخصص في الكيمياء والطبيعية.. وكنت معه حريصين على الذهاب إلى جامع (ووكنج) إحدى ضواحي لندن حيث تقام صلاة العيد في مسجدها، وفي لندن تقابلنا مع مولاي (محمد علي الهندي) أول من ترجم القرآن، ومع الإنجليزي المسلم ماراديوك بكتول الذي ترجم معاني القرآن وحضر إلى القاهرة قبل طبع الترجمة ليراجعها مع صديقه المرحوم الأستاذ الغمراوي، ولما عاد (الغمراوي) من إنجلترا عمل فترة في التدريس، إلى أن اختير "أستاذا للكيمياء" بكلية الصيدلة وكان قدوة حسنة في خلقه وتدينه لزملائه وطلابه إلى أن أحيل إلى المعاش، وفي عام ١٩٦٠ دعي إلى السعودية فأسس كلية الصيدلة بجامعة الرياض، وظل يعمل بها أستاذا وعميدا لمدة ثلاث سنوات.

وعلى الرغم من مسئولياته العلمية فإن ذلك لم يشغله عن متابعة البحث في علوم القرآن من لغة وتفسير، وظل اتصاله بإخوانه وأصدقائه الأزهريين الذين كان تقديرهم له عظيما وظل هذا الاتصال وطيدا حتى نال ثقة المغفور له الشيخ محمد الأحمدي الظواهري (شيخ الأزهر).

وظل اتصاله وطيدا بصفة خالصة بالبحوث القرآنية، ومن ثم عهدت إليه إدارة الأزهر الشريف بالتدريس في كلية أصول الدين، واستمر يدرس بها في عهديها القديم والحديث (قبل ١٩٦١ وبعدها).

الشرف الرفيع أن أستمع إليه يتحدث عن الإسلام، وأن أذكر في حضرته بعض مشاكل تفسير القرآن في ارتباطها مع العلم الحديث، إن كوني تلقيت من جلالته نفسه معلومات قيمة، ومن حاشيته يشكل لي امتيازا خاصا).

ويقول: (وعندما استطعت قياس المسافة التي تفصل واقع الإسلام عن الصورة التي اختلقناها عنه في بلادنا الغربية شعرت بالحاجة الملحة لتعلم اللغة العربية التي لم أكن أعرفها، ذلك حتى أكون قادرا على التقدم في دراسة هذا الدين الذي يجهله الكثيرون، كان هدفي الأول هو قراءة القرآن ودراسة نصه جملة بجملة مستعينا بمختلف التعليقات اللازمة للدراسة النقدية. وتناولت القرآن منتبها بشكل خاص إلى الوصف الذي يعطيه عن حشد من الظاهرات الطبيعية. لقد أذهلتني دقة بعض التفاصيل الخاصة بهذه الظاهرات وهي تفاصيل لا تدرك إلا في النص الأصلي. أذهلتني مطابقتها للمفاهيم التي نملكها اليوم عن نفس هذه الظاهرات والتي لم يكن ممكنا لأي إنسان في عصر محمد ﷺ أن يكون عنها أي فكرة، ولقد قرأت إثر ذلك مؤلفات كثيرة خصصها كتاب مسلمون للجوانب العلمية في نص القرآن.

إن أول ما يثير الدهشة في روح من يواجه مثل هذا النص لأول مرة هو ثراء الموضوعات المعالجة، فهناك الخلق، وعلم الفلك وعرض لبعض الموضوعات الخاصة بالأرض وعالم الحيوان وعالم النبات والتناسل الإنساني..).

ويقول في ص ١٤٨ – ١٤٩: (وسيجد القارئ بالتفصيل في نهاية هذا الجزء الثالث من الكتاب نتائج مقارنة التوراة بروايات القرآن فيما يتعلق بحدث واحد، وقد خضع الكل للنقد العلمي، وعلى سبيل المثال فقد تم اختياري مسألتي (الخلق والطوفان) واتضح بالنسبة لكل منهما عدم

وطبعت له لجنة التأليف والترجمة بعض محاضراته فيها بعنوان "في سنن الله الكونية" وفي السنوات الأخيرة كان يدرس لطلبة الدراسات العليا بنفس الكلية).

وقد حفلت المجلات الإسلامية وبخاصة مجلة الأزهر بمقالاته الممتعة في هذا الصدد، ومنها تلك السلاسل التي كتبها تحت عنوان "دلالة القرآن على نفسه أنه من عند الله" "والسماء في القرآن وفي العلم"، "والجبال في القرآن"، كما أن مذكراته للطلبة التي دونوها بالآلة الكاتبة في كراستين، واحدة بعنوان "إسلاميات" والأخرى بعنوان "سنن كونية في غاية الإبداع".

هذا وقول د. بوكاي عما تلقاه من الملك فيصل وحاشيته من معلومات قيمة وإنه قرأ في أثر ذلك مؤلفات كثيرة خصصها كتاب مسلمون للجوانب العلمية في القرآن "يشير بوضوح إلى أنه قرأ الكثير من بحوث الدكتور الغمراوي وما درسه في كلية أصول الدين بالأزهر".

اتفاق العلم مع أقوال التوراة. ولكنا سنرى اتفاقا كاملا بين أقوال القرآن الخاصة بنفس المسائل وبين العلم الحديث).

وفي ص ٤٧ وما بعدها يتكلم عن خلق الإنسان تحت عنوان (تاريخ خلق العالم وتاريخ ظهور الإنسان على الأرض)، يتكلم عن التقدير العبري فيقول بعد بحث طويل (لنقل: إن خلق العالم بحسب هذا التقدير العبري يحدد بسبعة وثلاثين قرنا قبل الميلاد) ثم يبلور الاعتراض العلمي بقوله: ماذا يعلمنا العالم الحديث؟ ويجيب (إن كل ما يمكن ترقيمه هو عنصر تكوين النظام الشمسي الذي يمكن تحديده زمنيا.. بقدر الزمن الذي يفصلنا عن تكوين النظام بأربع مليارات ونصف من السنوات..) ويقول (مع ذلك فيمكن أن نؤكد وجود أطلال الإنسانية مفكرة وعاملة، ويحسب قدمها بوحدات تتكون من عشرات آلاف من السنين).

ويعود للموضوع في كتابه: (ما أصل الإنسان) فيقول ص ١٦٩ – ١٧١ عن التقويم اليهودي: أنه (قائم على أن خلق الكون والإنسان تم في أسبوع واحد) ويقول: تم تقدير عمر الأرض بحوالي ٤.٥ مليون سنة فيما يتعلق بأول ظهور للإنسان الأول على الأرض فعلينا أن نتذكر ببساطة أنه منذ حوالي ٤٠ ألف سنة مضت كان بالفعل إنسان يشبه الإنسان الحالي).

وجلي لنا بحثه في الكتاب الأول تعدد السموات، وتعدد الكواكب، والنظام الشمسي والمجرات، ومفهوم تعدد العوالم والمواد الكونية المنتشرة من النجوم، ومقابلة ذلك مع المعطيات القرآنية عن الخلق، وعلم الفلك في القرآن.

وتحت عنوان: (تأملات عما في السماء) أورد آيات بنيان السماء وخلق السماء بغير عمد نراها، وحركة الشمس والقمر دائبين – الضياء والنور من الشمس، والنور من القمر.

وفي خصوص (الأرض) أورد الآيات ذات المرمى العام، وأورد الآيات الخاصة عن دور المياه والبحار والجبال والرياح اللواقح، والماء العذب، وتفجير العيون والجنات والزروع والتوافق بين الآيات والعلم الحديث، وتحدث عن التركيب المعقد للأرض وتضاريسها، وعن الجو الأرضي، والارتفاع في السماء، والكهرباء الجوية، والظل وعالم النبات.

وتحت عنوان: (أصل الحياة) يذكر آيات الزوجية في النبات والحيوان والإنسان.

وتحت عنوان: (التوازن في عالم النبات) يورد الآيات الخاصة بكل موضوع من تناسل النبات من كل زوج كريم، وتلقيحها، ثم تأملات في النحل والعناكب والطيور، وآية تكوين لبن الحيوان (من بين فرث ودم) ثم تكلم عن التناسل الإنساني والمعجزات في آياته.

هكذا يشتمل الكتاب الأول على عشرات المسائل من أمهات العلم وكلها تقطع بأن بعض علم الله في القرآن هو الذي اكتشفه علماء أوروبة في العصور الأخيرة، في حين يقتصر الكتاب الثاني على تحقيق مسألة واحدة منها هي (أصل الإنسان) وفيه مقارنة جديدة بين نظرات كل من التوراة والإنجيل ثم القرآن.

وربما أجزأ في تبيين مكانته العلمية إشراك الأكاديمية الطبية الوطنية الفرنسية فيما وصل إليه (في كل من علم وظائف الأعضاء، وعلم الأجنة التي عرض لها القرآن منذ نحو أربعة عشر قرنا سبقت الاكتشافات العلمية الحديثة) على ما عبرت مقدمة الكتاب، وفيها قوله:

(... إن ما جاء به القرآن من بيان عن أصل الإنسان سوف يثير دهشة كثير من الناس لا ريب.. أما القرآن فيحتوي – حقا – على آيات بينات عن خلق الإنسان).

وفي الكتاب الأول خلص بوكاي في نهاية كتابه إلى قوله [٢٢] (إن القرآن – وقد استأنف التنزيلين اللذين سبقاه – لا يخلو – فقط – من متناقضات الرواية..) وقوله عن القرآن الكريم: (طابعه الخاص – هو التوافق التام من المعطيات العلمية الحديثة – بل أكثر من ذلك – وكما أثبتنا – يكتشف القارئ مقولات ذات طابع علمي من المستحيل تصور أن إنسانا في عصر محمد قد استطاع أن يؤلفها، وعلى هذا فالمعارف العلمية الحديثة تسمح بفهم بعض الآيات القرآنية التي كانت بلا تفسير صحيح حتى الآن).

(إن مقارنة عديد من روايات التوراة مع روايات نفس الموضوعات في القرآن تبرز الفروق الأساسية بين دعاوى التوراة غير المقبولة علميا وبين مقولات القرآن التي تتوافق تماما مع المعطيات الحديثة).

ثم يقول في ختام هذا الكتاب: (لذا فمن المشروع تماما أن ينظر في القرآن على أنه تعبير الوحي من الله، وأن يعطي له مكانة خاصة جدا حيث إن صحته أمر لا يمكن الشك فيه، وحيث إن احتواءه على المعطيات العلمية المدروسة في عصرنا تبدو كأنها تتحدى أي تفسير وضعي)[٢٣].

---

(٢٢) ص ٢٨٥.

(٢٣) ص ٢٨٦.

رابعا: خلق الإنسان في كتاب الدكتور الطبيب محمد علي البار: ينقل الدكتور قول الفقيه الحافظ ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) في أواخر القرن الخامس عشر للميلاد: (زعم كثير من أهل التشريح – الأطباء من أهل أوروبة: إن منى الرجل لا أثر له في الولد إلا في عقده، وأنه يتكون من دم الحيض)، وهذه نظرية أرسطو تسيطر على أهل أوروبة من ألفي عام. ثم يقول ابن حجر (وأحاديث الباب – سنن الرسول، ﷺ – تبطل ذلك)، فأحاديث الرسول تعلن أن الولد يخلق من نطفة الرجل ونطفة المرأة، والله – تعالى – يقول: ﴿ **إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ** ﴾ [٢٤] أي مخلطة من ماء الرجل وماء المرأة، ولم تدرك أوروبة هذه الحقيقة إلا في عام ١٩١٢م عندما ثبت في علم الوراثة أن الصفات الموروثة تنتقل عبر الحيوان المنوي من الرجل والبويضة من المرأة.

والتعبير الإلهي عن خلق الإنسان يظهر مباشرة بعد خلق السموات والأرض، حيث يقول سبحانه في سورة النحل: ﴿ **خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ ويتبعها بآية: ﴿ **خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ** ﴾ [٢٥].

وليس خلق الإنسان من التراب ثم من النطفة أمورا أقل في الدلالة على جلال خالق السموات والأرض، وكل هذا بدرجاته ومراحل الحياة فيه أدركه العلم من أوائل القرن الحالي، وما يزال يستكمل فهم إبداعات السموات في شكل العلقة إذ تعلق ببويضة الأنثى، والمضغة التي تنتقل إلى أن تكون جنينا، وأن العظام تسبق اللحم في التكوين، وأن مصدر الخلق نطفة الرجل.. النص القرآني صريح: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)** ﴾ [٢٦].

وما يزال العلم القرآني عن تكوين الجنين في نحو ٤٠ آية قرآنية مؤيدا بكل كشف جديد، ومن قوله تعالى: ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ** ﴾ [٢٧] ينتفي عن الإنسانية مصدر القردة الذي يزعمه بعض أهل الغرب.

---

(٢٤) سورة الإنسان، الآية ٣.

(٢٥) سورة النحل، الآيتان ٣، ٤.

(٢٦) سورة المؤمنون، الآيات ١٢ – ١٤.

(٢٧) سورة التين، الآية ٤.

والفقه الإسلامي يكذب ما تزعمه أوروبة نقلا عن أرسطو أكثر من نحو ألفي عام أن منى الذكر لا دخل له في تكوين الجنين، والوصف الوارد في الآيات القرآنية ينطبق أدق انطباق على ما ثبته علم الأجنة الآن، وهو معجزة مستمرة ينتقل لأجلها الأطباء إلى الإسلام الآن.

خامسا: أستاذ الفلك بجامعة القاهرة: كان الأفذاذ السابقون في الطب والصيدلة والطبيعة بحاجة إلى متخصص في الفلك، وأتاحت جامعة القاهرة هذه الفرصة على يد الدكتور/ محمد جمال الدين الفندي، نبه أمره في الأربعينات من القرن الحالي حتى منحه ملك إنجلترا وسام الإمبراطورية البريطانية في العلوم من الطبقة الممتازة سنة ١٩٤٦، ثم رد على إنجلترا الوسام احتجاجا على غزوها مصر سنة ١٩٥٦، ونال جائزة فؤاد الأول للعلوم سنة ١٩٥٠م، وكان عضوا بمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف، سلك مسلك الفلك في إثبات دلالة ذلك العلم على وحدانية الخالق، وعظمة ملكوته، وله في ذلك نيف وعشرون كتابا تشرح الآيات القرآنية منذ الخمسينات من هذا القرن، وأسهم في كتاب (مقدمة تاريخ العلوم عند العرب) وله تحقيق (زيج ابن يونس) بمركز إحياء التراث، وهو صاحب كتاب (البيروني) الصادر سنة ١٩٦٨م، ومن بحوثه ما دار حول الأقمار الصناعية، وأجرام السماء، وقصة الفيزياء (الطبيعية) والصعود إلى المريخ، وعجائب الأرض والسماء، وله طلائع في المسلسلات الثقافية عن المريخ، والفضاء الكوني، وغزو الفضاء والغلاف الهوائي.

ومن كتبه (القرآن والعلم) سنة ١٩٦٨م و(الكون بين الدين والعلم) و(روائع الإعجاز في القرآن الكريم) و(الله والكون)، و(الإسلام وقوانين الوجود)، وإليك أمثالا نختارها من كتابه (القرآن والعلم) سنة ١٩٦٨، والباب الخامس فيه يبدأ بالطبيعة الجوية، والباب السادس عن الطبيعة الأرضية، وفي الباب السابع علم الفلك في القرآن وأعمال الرياح والأمطار، وحقيقة تناقص الضغط الجوي مع الارتفاع.

١. فيبدأ بهذه الآية: ﴿ **وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً** ﴾ [٢٨] التي تحول ٣٠٠ سنة شمسية إلى سنين قمرية فتجعلها ٣٠٩، ويجري الحساب، وينتهي إلى أن عدد الزيادة (يعادله ٩ سنوات كاملات).

٢. ثم آية: ﴿ **وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ** ﴾ [٢٩] فهي تشير إلى بناء الكون المرئي، بما فيه من ملايين المجرات التي تمثل وحدات الكون العظمى، كل ذلك إلى

---

(٢٨) سورة الكهف، الآية ٢٥.

(٢٩) سورة الذاريات، الآية ٤٧.

جانب ما يعجب به الفضاء من طاقات وإشعاعات يضاف إليه قوله: (وإنا لموسعون) إذ يتسع لكل المجرات مهما تباعدت، ولم يثبت حجم الكون على حال منذ قاس العلماء أبعاده.

٣. ثم قوله: ﴿ **فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ، وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ** ﴾ [٣٠] فمواقع النجوم شيء جدير بأن يقسم به الخالق، وأقرب نجم إلينا داخل مجرتنا يبعد عنا بمسافة تقدر بعدد من السنين الضوئية، وعندما نخرج إلى خضم الفضاء الفسيح نجد أقرب المجرات إلينا تبعد عنا بعدة مئات الآلاف من السنين الضوئية.

وفي التعليق على قوله تعالى: ﴿ **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ** ﴾ [٣١] يقول: إن (السلطان) هنا هو العلم.

ويقول عن الذرة في الآيات المتعددة: إنها أصغر الأشياء. ثم يقول عن قوله تعالى: ﴿**وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ** ﴾ [٣٢]، فهذا يدل على انقسام الذرة إلى أصغر، وهو ما لم يعرف إلا أخيرا.

وفي باب (القرآن وعلوم الحياة): يتكلم عن الولادة، ويتكلم عن (البصمة) التي تختلف في خلق الله جميعا في آيتي سورة القيامة ٣، ٤ ثم إلى الآية ٥٦ من سورة النساء حيث تختص الآية الجلد بالإحساس الأشد بالألم، ثم ينتقل إلى الآية ٦٩ من سورة النحل، ومعجزات الشفاء فيما تخرجه.

ثم ينتقل إلى باب تاسع فثمة معجزات في سورة هود، ثم معجزات في الماء والهواء والرياح والبراكين، ثم إلى النجوم تحفر أنفاقها في قوله تعالى: ﴿ **النَّجْمُ الثَّاقِبُ** ﴾ [٣٣] ثم إلى بروج السماء في سورة البروج: وسورة الحجر: ١٦ ليعلمنا أن البروج مجموعات من النجوم تزين السماء.

---

(٣٠) سورة الواقعة، الآيتان ٧٥، ٧٦.

(٣١) سورة الرحمن، الآية ٣٣.

(٣٢) سورة يونس، الآية ٦١، وسورة سبأ، الآية ٣.

(٣٣) سورة الطارق، الآية ٣.

والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر يتابع طبع مؤلفاته بالإنجليزية والعربية.

المبحث الرابع

الإسلام دين السماحة والسلام لكل العالم

يقول عليه الصلاة والسلام: "الإيمان بضع وسبعون شعبة، أفضلها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان".

ويقول: "إذا لم تستح فاصنع ما شئت".

ولما جعل الرسول إماطة الأذى عن (الطريق) أدنى شعب الإيمان بين لنا أن حدود مسئولية المسلم تترامى إلى كل ما يصلح به مجتمعه، وأن طريق ذلك واسع، لكل امرئ فيه ما يقدر على القيام به.

وفي اتقاء الشبهات قال عليه الصلاة والسلام: "لا يبلغ الرجل درجة المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا لما به اليأس".

وفي ذلك قول القائل: (لأجعل بيني وبين الحرام سترة ولا أحرمها).

وفي تعريف الإيمان تتجلى سماحة الإسلام فهو تصديق بالقلب وإقرار باللسان بالله وملائكته وكتبه ورسله، لا نفرق بين أحد من رسله، وفي ذلك يدخل العمل الصالح.

ولا يخرج من الإيمان من يرتكب الإثم إذا تاب توبة نصوحا، وقد يغفر الله له: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ** ﴾[٣٤]، ومادامت المغفرة مرجوزة فلا (تكفير) لمن قل عمله أو كثر خطؤه.

وبهذا السلام الداخلي للإنسان وللعالم كله كان الإسلام دين السلام، وتعايشت فيه كل الأديان بالحكمة والموعظة الحسنة، أي بالدعوة "المفطورة على السماحة"، وذلك واضح من قوله جل ثناؤه: ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**﴾[٣٥]،

---

(٣٤) سورة النساء، الآية ٤٨.

(٣٥) سورة البقرة، الآية ٢٨٥.

والسمع والطاعة هما التنفيذ الرضى من الفرد والجماعة وهو تعالى يقول: ﴿**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً** ﴾[٣٦].

وهو القائل تبارك وتعالى: ﴿ **وَاللَّـهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ** ﴾ [٣٧]، و ﴿ **تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ** ﴾ [٣٨].

وينهي عن تأويل السلام والريبة فيه إذا صدر من الآخرين بقوله: ﴿ **وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً** ﴾ [٣٩]، ولما أذن الله للمسلمين بالحرب إذن بها للدفاع عن النفس، وفرض عليهم الاستجابة لطلب السلام فقال: ﴿ **وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** ﴾ [٤٠].

والسلام صفة الله تعالى واسمه: ﴿ **هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ** ﴾ [٤١]. وهو تحية الإسلام وفيه ابتدار بالأمان، والإنسان جدير به حيثما كان: في نفسه، وفي زوجه وبنيه ومخالطيه، وفي وطنه، فذلك قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ** ﴾ [٤٢] وقوله: ﴿ **يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨)، إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾ [٤٣] ومن السماحة المثلى يعترف الإسلام بالديانتين اللتين جاءتا قبل وإن كانتا لا تعترفان به.

وبالعفو والصفح يتدفق التراث الإسلامي من عمل النبي والخلفاء حتى اليوم في معاملات المسلمين للدول التي لا تعرف السلام ولا العفو ولا الصفح، بل تخون العهد وتنقض الصلح.

---

(٣٦) سورة الزمر، الآية ٢٩.

(٣٧) سورة يونس، الآية ٢٥.

(٣٨) سورة الأحزاب، الآية ٤٤.

(٣٩) سورة النساء، الآية ٩٤.

(٤٠) سورة الأنفال، الآية ٥١.

(٤١) سورة الحشر، الآية ٢٣.

(٤٢) سورة البقرة، الآية ٢٠٨.

(٤٣) سورة الشعراء الآيتان ٨٨، ٨٩.

كان أول عمل سياسي لرسول الله عليه الصلاة والسلام إذ دخل المدينة – توقيع (معاهدة السلام) مع اليهود وغيرهم، وفي العام السادس للهجرة عقد الصلح مع المشركين عند الحديبية.

وفي إبان عودة الجيش أنزل الله عليه سورة الفتح كاملة، واستفتحها بقوله عن هذا الصلح: ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً** ﴾ (٤٤) فهو (فتح بالصلح وبالسلام) للعرب وللعالم، وقد أتبعه الرسول بدعوة ملوك العالم للإسلام.

وفي إبان عقد صلح الحديبية سمع الرسول رجلا يقول عن الصلح: (ما هذا بفتح، لقد صددنا عن البيت الحرام، وصد هدينا) فقال ﷺ: "بئس الكلام بل هو "أعظم الفتح"، قد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح – جمع راحة اليد – عن بلادهم ويسألوكم القضية، ويرغبوا إليكم في الأمان، ولقد رأوا منكم ما كرهوا وأظفركم الله عليهم، وردكم سالمين، وردكم مأجورين وهو أعظم الفتح".

وتتابعت ردود الملوك على الدعوات بالدخول في الإسلام، إلا بعضا، واستجابت له أممهم بعد أعوام في فارس والشام وآسيا الصغرى ومصر لينتشر في العالم ويدين به ربع سكانه.

وكان أبو بكر يقول: (ما كان فتح الإسلام أعظم من صلح الحديبية، والعباد يعجلون، والله لا يعجل لعجلة العبد، حتى يبلغ الأمر ما أراده).

والإمام الزهري يشرح ذلك بقوله في أواخر القرن الأول: (أمن الناس بعضهم بعضا وكلم بعضهم بعضا، وتفاوضوا في الحديث والمنازعة، ولم يكلم أحد يعقل شيئا بالإسلام إلا بادر بالدخول فيه).

وابن هشام يقول في أول القرن الثالث: (خرج رسول الله إلى الحديبية في ١٤٠٠ وخرج إلى مكة بعد سنتين في عشرة آلاف أمنوا مكة ولم يحاربوها).

والله تعالى يقول: ﴿ **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ** ﴾ (٤٥).

ولقد حصل التاريخ الماضي للحضارتين الأوربية والإسلامية الإمام محمد عبده (١٩٠٥) في كلمات معلمة: (حمل الغرب على الشرق حملة واحدة لم يبق ملك من ملوكه، أو شعب من

---

(٤٤) سورة الفتح، الآية ١.

(٤٥) سورة النحل، الآية ١٢٥.

شعوبه إلا اشترك فيها أكثر من مائتي سنة.. وجدوا حرية في دين "وعلما وشرعا وصنعة" مع كمال اليقين، وتعلمت "دول أوروبة" أن حرية الفكر وسعة العلم من وسائل الإيمان، ثم جمعت ما شاء الله من الآداب، وانطلقت به قريرة العين، ولم يمكن بعد ذلك إلا قليل من الزمن حتى ظهرت طائفة منهم تدعو إلى الإصلاح بما لم يبعد عن الإسلام إلا قليلا..).

وإنما قصد دعوات مارتن لوثر ١٥٤٦م وقد حوكم، كمحاكمة زونجلي ١٥٢١م من قبله ثم كالفن ١٥٦٤م من بعده، ثم كان قيام حرب الأعوام الثلاثين وانتهاؤها ١٦٤٨م ليأخذ البروتستانت حقهم في نصف أوروبة، وينتقل بعضهم إلى أمريكا، وتفقد الكنيسة سيطرتها على الشعوب.

كذلك ينقل لنا الإمام محمد عبده قول الفيلسوف الأوربي (ماكس نوردو) عن قومه: (إن الناس كانوا – وما زالوا – يطلبون الحق، ولم يكونوا في زمان أبعد عنه منهم في هذا الزمان، إنك لو طرقت أي باب تسأل: هل مرت السعادة بهذا البيت؟ لأجابك مجيب: إذا شئت فاطرق بابا آخر، فإن السعادة لم تمر بيننا). ويقول محمد عبده ذلك بعد أن ذكر حال الأمم الأوربية جميعها.

أما الإسلام فدين السكينة والطمأنينة، والعزة مسلمة به: ﴿ **وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ (٤٦).

والدكتور السنهوري من كبار أساتذة القانون المدني الذي نقل إلى بلدان المسلمين من أوربة يعني أوروبة المعاصرة بقوله: (الإسلام قوي لا تهضمه الجنسية ولا الاستعمار ويحاول الغربيون أن يحولوا الإسلام إلى مجرد عقيدة ليسهل تفريق الأمة الإسلامية، وهضم ما استمرءوه منها).

والله تعالى لا يخلف وعده بنصرة دينه: ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً** ﴾ (٤٧).

---

(٤٦) سورة المنافقون، الآية ٨.

(٤٧) سورة الفتح، الآية ٢٨.

وبهذا اليقين كان الرجل الواحد في سرية مؤتة يقاتل مائة! فالمسلمون ثلاثة آلاف يقاتلون ثلاثمائة ألف! ويرجعون سالمين معهم غنائمهم إلا أحد عشر من الشهداء منهم أمراء الجيش الثلاثة.

***

وفي مستقبل حضارة الإسلام قول الكاتب الأمريكي جورج سارتون: (لقد سبق للعرب أن فاقوا العالم في مرحلتين طويلتين من مراحل التقدم طوال ألفي سنة قبل أيام اليونان ثم في العصور الأخيرة مدة أربعة قرون، وليس ثمة ما يمنع هذا الشعوب من أن يقودوا العالم في المستقبل القريب أو البعيد).

وهو يعني الحضارة المصرية من قبل التاريخ الميلادي بآلاف الأعوام، كما يعني قرونا عظيمة في تاريخ العالم سبقت النهضة الأوربية، ويعني أن العلوم العربية كانت – وما زالت – فاتحة عصر التنوير هنالك.

الفصل الثاني

في الاقتصاد الإسلامي والأخلاق

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ ﴾ (٤٨)

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٤٩)

﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ (٥٠)

---

(٤٨) سورة آل عمران: الآية ١٩٥.

(٤٩) سورة القصص: الآية ٧٧.

(٥٠) سورة المائدة: الآية ٢.

الفرع الأول

في قواعد الاقتصاد الإسلامي والأخلاق

المبحث الأول

مصطلح الاقتصاد الإسلامي

يتسع مصطلح (الاقتصاد الإسلامي) للقيم العليا، ولكل مسمى يبتغي به الإنسان الرزق الحلال، ولاقتصاد الدولة وماليتها، وتدبير الأسرة والرجل الواحد، وإلى أن يكون نقيض الإسراف على النفس، أو في المال، وأنه حرب على الحرام في المكسب أو المغنم، ويعني أعظم العناية بالفقراء، ومن ثم يستحق وصفه الإسلامي.

ويرى بعض العلماء تسمية الاقتصاد الإسلامي (علم الإعمار) قياسا على (أعمره دارا) [٥١] وأخذ بالنص القرآني: ﴿ **هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنْ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا** ﴾ [٥٢]، وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ** ﴾ [٥٣].

ومن أقسامه عز وجل: ﴿ **وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ** ﴾ [٥٤] ومن آياته: ﴿ **وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا** ﴾ [٥٥].

وربما أيد هذا النظر استعمال بناة الدول له. يقول طاهر بن الحسين لابنه عبد الله – والأول قائد من قواد المأمون ولاه خراسان، والثاني نائب أبيه في القيام بهذه الولاية: (وليكن كنز خزائنك في "عمارة" الإسلام وأهله) وهي وصية قائد منتصر تنسب إله الدولة الطاهرية التي

---

(٥١) الدكتور رفعت العوضي، أستاذ الاقتصاد بجامعة الأزهر في مؤلفاته، وفي مجلة الاقتصاد الإسلامي.

(٥٢) سورة هود: الآية ٦١.

(٥٣) سورة التوبة: الآية ١٨.

(٥٤) سورة الطور: الآية ٤.

(٥٥) سورة الروم: الآية ٩.

قامت بين عامي (٢٠٥ – ٢٥٩هـ/ ٨٢٠ – ٨٧٣م) في خراسان كما قاد جيش المأمون بمصر سنة ٢١٥هـ.

لكن تعبير (الاقتصاد) تعبير قرآني في الموضوع، لا ينبغي العدول عنه إلى تعبير جديد، يقول جل ثناؤه: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ**﴾ (٥٦)، فهذا تعبير عن التوازن والاعتدال وحسن الإدارة في أمة لا تترفها النعمة.

والاقتصاد لفظ يتسع للإعمار وغيره كقوله تعالى: ﴿ **وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ** ﴾ (٥٧)، وقوله: ﴿ **فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ** ﴾ (٥٨)، وقوله: ﴿ **وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ** ﴾ (٥٩)، وقوله: ﴿ **لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاتَّبَعُوكَ** ﴾ (٦٠)، وقوله تبارك وتعالى في الإنفاق: ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً**﴾(٦١).

ورسول الله يقول عن المال والعيال "ما عال من اقتصد".

والإمام جعفر الصادق يقول: (ضمنت لمن اقتصد ألا يفتقر)

والإسراف في اللغة: "تجاوز القصد"، والقصد في اللغة: الرشد. و"القصد في الأمر": توسط واعتدال وطلب الأسد، وعدم تجاوز الحد.

والطريق القصد، أو السفر القصد: هما الطريق السهل، أو السفر السهل، ومن حسن الإدارة وطيب العيش قيل: الاقتصاد نصف المعيشة.

---

(٥٦) سورة المائدة: الآية ٦٦.

(٥٧) سورة لقمان: الآية ١٩.

(٥٨) سورة فاطر: الآية ٣٢.

(٥٩) سورة النحل: الآية ٩.

(٦٠) سورة التوبة: الآية ٤٢.

(٦١) سورة الفرقان: الآية ٦٧.

المبحث الثاني

في الأخلاق

الخلق: السجية. والله – تعالى – يقول لرسوله ﷺ – مؤكدا: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ [٦٢].

ولما سئلت أم المؤمنين عائشة عن خلق رسول الله، أجابت: "كان خلقه القرآن" ومن ذلك حديثه: "بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"، وحديثه: "البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس".

والخلق طريقة حياة وسلوك، والمسلم حيثما كان يتغيا رضوان الله بحسن السلوك، والله يقول: ﴿**وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً**﴾ [٦٣]، والتقوى رأس الأمر كله، وفيما يلي بعض علامات على الطريق:

يقول عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما: كنا مع النبي ﷺ فقال: "إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، تؤتي أكلها كل حين بإذنها ربها وهي كالمؤمن، أخبروني ما هي؟" – واستمر يروي الحديث: فوقع الناس في شجر البوادي، وكنت صبيا، فوقع في نفسي أنها النخلة، ولكني هبت رسول الله أن أقول وأنا أصغر القوم، فقال ﷺ: "إنها النخلة".

وأول ما نشهده في النخلة السمو والاستقامة والصلابة، واتجاه أوراقها في معاليها نحو كل الاتجاهات ليكون منها لكلها نصيب، وكأنما خلقها الله لتكون مثالا لأخلاق الإسلام في كل الأنحاء، أما ثمرتها فتحوي من حلاوة السكر أكثر مما يحمله ثمر أي من الشجر (٩٠%).

ويقول عليه الصلاة والسلام: "ما من شيء أثقل في ميزان العبد يوم القيامة من حسن الخلق" والله تعالى يحب معالي الأمور ويكره سفسافها، ومن ذلك يقول ﷺ لأبي ذر "اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن".

---

(٦٢) سورة القلم: الآية ٤.

(٦٣) سورة الطلاق: الآيتان ١، ٣.

ويقول عن التجارة "إن أطيب الكسب كسب التجار الذين إذا حدثوا لم يكذبوا، وإذا وعدوا لم يخلفوا، وإذا اشتروا لم يذموا، وإذا باعوا لم يطروا، وإذا كان لهم لم يعسروا"، والخلق الحسن حيثما كان الإنسان من أظهر الدلالات على صدق إيمانه [٦٤].

---

(٦٤) وربما أغنى عن بحث الأخلاق في المجتمع الأوربي القائم على عبادة المال والعمل له دراسات تثبت تأثر الإنجليز بالدين ومحاربة أوربة له في الاقتصاد، وهي دراسات في كتاب جمع أبحاثا في السبعينات والثمانينات من هذا القرن لمؤلفه علي عزت بيجوفيتش رئيس جمهورية البوسنة والهرسك تحت عنوان "الإسلام بين الشرق والغرب"، وفي الفصل الثالث عشر يقول: لن تستطيع حركة دينية في أوربا أن تبني برنامجا اجتماعيا، وسيظل دين أوربا وإلحادها سادرين في طبيعتهما المتطرفة. ولكن يوجد جزء من العالم الغربي – بسبب موقعه الجغرافي – متحرر من التأثيرات المباشرة لمسيحية القرون الوسطى، متحرر من العقد المستعصية لهذا العصر.

لقد قضى الإصلاح الديني في إنجلترا – بمنطق نظري – على كل من الطرفين المضادين: (السيطرة البابوية والملكية) وهذه الثنائية في أسلوب الحياة الإنجليزية يمكن فهمها إذا فهمنا موقف (روجير بيكون) الذي يعتبر مؤسس ورائد التقدم الروحي الإنجليزي الحديث، لقد أكد بيكون على المكونات الدينية وظل ثابتا على ثنائيته كما فعل الإسلام.. ولكن تبقى حقيقة هامة عن بيكون (روجير بيكون ١٢٩٤) لم تتم دراستها دراسة كافية والاعتراف بها. وهي أنه أب للفلسفة والعلوم الإنجليزية في حقيقة الأمر وكان تلميذا مخلصا للثقافة وقد تأثر تأثيرا قويا بابن سينا (٤٣٨هـ) الذي اعتبر بيكون أعظم فيلسوف ظهر بعد أرسطو..

ويقول علي عزت بيجوفيتش: (إن التضاد بين الطبيعي وبين الأخلاقي الذي يتميز به المدخل المسيحي أصبح في الإمكان التوفيق بينهما عند عدد من المفكرين الإنجليز).

وبعد سرد موجز لرجال الفكر أصحاب الطريق الوسط يقول: (يوجد من هذه النجوم اسم من ألمع الأسماء هو آدم سميث Adam Smith ألف كتابين بينهما تناقض ظاهري ولكنهما متكاملان من حيث المضمون.

أحد هذين الكتابين هو (نظرية المشاعر الأخلاقية) والثاني هو (بحث في طبيعة وأسباب تقدم الأمم) ويعتبر الكتاب الأخير من أكثر الكتب تأثيرا في فكر القرن الثامن عشر ويعالج الكتاب الأول موضوع الأخلاق أما الثاني فيتناول الاقتصاد ويتخذ لفكرته الأساسية مبدأ الأنانية. وكان آدم سمث يدرس الأخلاق والاقتصاد والسياسة بجامعة جلاسجو كأجزاء متكاملة من برنامج دراسي متكامل.

ويقول نقلا عن كروسمان (كان انتصار الليبرالية مؤديا إلى تجديد الدين في إنجلترا في العصر الفكتوري (القرن التاسع عشر) ولم يكن هذا ليحدث في مكان آخر سوى أمريكا، بينما نجد أن التقدم والديمقراطية عند الليبراليين الألمان والإيطاليين هي موضوعات قاصرة على العلمانيين، فالمؤمنون بالكاثوليكية يعتقدون أنه لا يوجد جسر على الثغرة الفارقة بين الإيمان بالمسيح والإيمان بالتقدم، والمؤمنون بالتقدم يعتقدون أن الدين لا علاقة له بالتقدم أو الحرية). ويقول عن إنجلترا (حتى الاشتراكية الإنجليزية هي الأخرى من نوع مختلف. نستمع من منصة حزب العمال اقتباسات من الكتاب المقدس مثلما نسمعها من منبر الكنيسة هناك).

وفي الثواب عليه يقول تعالى: ﴿ **لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ** ﴾ [٦٥]، وقوله: ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ** ﴾[٦٦]، ومن الشح اللدد، ورفض الصلح، والامتناع عن العفو.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمع رسول الله ﷺ صوت قوم بالباب عالية أصواتهم، وإذا أحدهما يسترجع الآخر ويسترفقه في شيء وهو يقول: والله لا أفعل، فخرج عليهما رسول الله ﷺ فقال: "أين المتألي على الله لا يفعل المعروف؟" فقال: أنا يا رسول الله، وله (لخصمه) أي ذلك أحب.

وسب رجل رجلا عند رسول الله فجعل الرجل المسبوب يقول للرجل: عليك السلام. قال ﷺ: "أما إن ملكا يذب عنك، كلما يشتمك هذا قال له: بل أنت، وأنت أحق به".

وفي إحياء علوم الدين للغزالي روى عن ابن قتيبة.. مر بي بشر بن عبد الله بن أبي بكرة فقال: ما يجلسك ها ها؟ قلت خصومة بيني وبين ابن عم لي. قال: إن لأبيك عندي يدا، وإني أريد أن أجزيك بها، وإني والله ما رأيت شيئا أذهب للدين ولا أنقص للمروءة ولا أضيع للذة ولا أشغل للقلب من الخصومة، فقمت لأنصرف، فقال لي خصمي: إنك عرفت أن الحق لي، قلت لا: ولكن أكرم نفسي عن هذا، قال: فإني لا أطلب منك شيئا، هو لك.

ومن الأمانة الصدق والوفاء والرحمة والحياء والتكافل والسخاء والعفة وصلة الرحم وطيب المطعم والمعونة عن النوائب والبر بالغير، والإنفاق في الخير، والمساهلة في المعاملة.

والدين أمانة والتزام بكل الإسلام، وأخلاق التاجر المسلم وجه من وجوه عبادته لله، ولذلك أدخلت تجارات المسلمين في الإسلام أكثر الأمم التي أسلمت، ولم تعد الانتصارات الحربية أن

وقد وضحنا في كتابنا القرآن والمنهج العلمي المعاصر تأثير المسلمين وعلومهم في القديسين ألبرت الكبير وتلميذه توماس الإكويني وهما يمثلان الدومانيكان كما أشرنا إلى إعظام روجير بيكون للفلسفة العربية وهو القائل عن ابن رشد (إنه فيلسوف متعمق صحح الكثير من أغلاط الفكر الإنساني وأضاف إلى تراث العقول ثروة لا يستغني عنها وأدرك كثيرا مما لم يكن قبله معروفا لأحد)، وكان بيكون من كبار الدارسين للكندي وابن القيم، وبيكون يمثل مبادئ الإصلاح الديني الإنجليكاني، وبهذا يجتمع على إعظام الفلسفة العربية القسمان في المسيحية..

(٦٥) سورة يونس الآية ٢٦.

(٦٦) سورة التغابن: الآية ١٦.

كانت أصواتا تنطق في موقعها أو في قريب منها.

والمسلمون عليمون أن الله يرزق الناس بعضهم من بعض، وأن الرزق كله من عنده، وأنه يجزي الحسنة الواحدة عشر حسنات، وربما شاء فأعطى أكثر، والمسلمون على ذكر دائم له سبحانه بالعبادات والمعاملات، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول: "إياكم والطمع، فإنه الفقر الحاضر" والطمع إحساس بالحاجة إلى مزيد، والغنى الحق هو عدم الحاجة.

والرسول يقول: "إن من موجبات المغفرة إدخال السرور على قلب أخيك المسلم". "وإن المؤمن ليدرك بحسن الخلق درجة الصائم القائم".

ويبشرنا بقوله: "إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق"، ويقول "أفضل الصداقة جهد المقل"، وكان ﷺ يقول: "الضعيف أمير الركب" وكان يتجوز في صلاته إذا سمع بكاء طفل لشدة وجد أمه من بكائه، ويقول: "من اطلع في كتاب أخيه المؤمن بدون إذنه فقد اطلع في النار"، ويقول "حديثكم بينكم أمانة ولا يحل لمؤمن أن يرفع على أخيه المؤمن".

وينهي عن الكبر بقوله: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان"، ونهى – يوما – عن مجالسة الموتى، فسأله رجل: ومن الموتى؟ فقال: "كل غني قد أبطره غناه".

وعندما قدم أبو عبيدة بمال كثير من البحرين قال للناس: "أظنكم سمعتم بقدوم أبي عبيدة وأنه جاء بشيء فأبشروا، وأملوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخاف عليكم، ولكني أخشى أن تبسط الدنيا عليكم فتنافسوها كما تنافسوها وتلهيكم كما ألهتكم"، فهو يسمى المال الكثير شيئا، ويحذرنا من أن تلهينا الحياة، وينشئ أمته على ما تراه من عمله وخلقه العظيم كما وصفه الله سبحانه.

***

وهو غوث للمستغيثين ولو كانوا أعداء يتربصون به وبالمسلمين؛ استغاثت به قريش ليتوسط لدى أهل نجد ليرسلوا إليها قمحا منعوها منه، فتوسط ليطعموا من جوع ولم يأخذهم بذنوبهم حين أجاعوه وأهله بحصارهم في الشعب حتى أكلوا أوراق الشجر، وبهذه الوساطة علمنا أن الإسلام "أخوة إنسانية" وأن الكريم يعفو ولا يهفو، ومن أوامره لأمته: "أد الأمانة لمن ائتمنك ولا تخن من خانك".

وهو ولي الأمر الذي يؤثر على نفسه فقراء قومه، جاءته هدية فقال: اذهبوا بها إلى دار عبادة بن الصامت، فذهبوا، قال عبادة: – وهو يعول اثني عشر من أهل بيته – اذهبوا بها إلى من هو أحوج منا، فصاروا يرسلونها من فقير إلى فقير حتى رجعت إلى دار عبادة. وقد شهد الجميع أنه أحوج الجميع.

ومن دروسه في حساب الدنيا والآخرة يسأل صحبه "أتدرون من المفلس؟ قالوا: من لا درهم له ولا متاع. قال: المفلس من يأتي بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار".

ومن دروسه في هذا الحساب ما يجمع الفقه والقضاء وكنوز الدنيا وبيع العقارات: قال لصحبه: "اشترى رجل ممن كان قبلكم عقارا من رجل، فوجد الذي اشترى العقار في عقاره جرة من ذهب، فقال للبائع: خذ هذه عني، إنما اشتريت العقار ولم أبتع الذهب، قال بائع الأرض: إنما بعتك الأرض وما فيها، فتحاكما إلى رجل، فقال الذي تحاكما إليه: ألك ولد؟ فقال أحدهما: لي غلام، وقال الآخر: لي جارية، فقال أنكحوا الغلام الجارية وتصدقوا.

والأسرة السعيدة، والإحصان والتزويج مقاصد شرعية في صدارة الاجتماع والاقتصاد.

ويقول لرجل يريد الزواج: "هل عندك شيء تصدقها إياه"؟ قال الرجل: ما عندي إلا إزاري، قال – ﷺ –: "إن أعطيتها إزارك جلست ولا إزار لك فالتمس شيئا" قال: "ما أجد شيئا" قال: "التمس ولو خاتما من حديد" فلم يجد. قال: "هل معك شيء من القرآن؟ "قال: نعم. سورة كذا وكذا، قال نبي الرحمة: "قد زوجتكما بما معك من القرآن" أو قال: "علمها القرآن".

وتجيئه فاطمة بنت قيس تقول: "إن لي سبعين مثقالا من ذهب. فيقول لها: "اجعليها في قرابتك". أو تجيئه مستشيرة في خطيبين خطباها من عظماء الصحابة فيقول لها: "أما معاوية فصعلوك لا مال له، وأما أبو حذيفة فلا يضع عصاه عن عاتقه" وأمرها بأسامة بن زيد فتزوجته، وبورك لها من كل وجه، تزوجت حبه وابن حبه، وفي دارها اجتمع أصحاب الشورى الذين اختاروا أمير المؤمنين عثمان للخلافة، واقترنت بأصغر قواد الرسول شبابا، وآخرهم قيادة، وهو أول قواد أبي بكر؛ إذ أنفذ جيشه إلى العدو، وعاد مكللا بالنصر.

وعلى الجملة: فالقرآن الكريم يخاطب الإنسان حيثما كان، ويجمع بين التصديق والعمل والالتزامات القانونية في أخلاق الفرد والدولة أو المجتمع، وفي حقوق العدو والصديق وحياة

الأسرة ونشاط السوق. وبالأتمار بالمعروف والابتعاد عن المنكر تنسجم إرادة الخالق قال تعالى: ﴿ **صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ** ﴾ [٦٧] ﴿ **صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً**﴾[٦٨].

(٦٧) سورة النمل: الآية ٨٨.

(٦٨) سورة البقرة: الآية ١٣٨.

المبحث الثالث

العمل والرزق

الرزق رزق الله، وهو بعض التوفيق في الحياة الدنيا، والإنفاق منه واجب بالنص. يقول تعالى عن المتقين إنهم: ﴿ **الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاة وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**﴾[٦٩]، ويقول تبارك وتعالى: ﴿ **وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ (٢٣)**﴾ [٧٠]، وهو سبحانه وتعالى: ﴿ **الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ** ﴾ [٧١] يقول: ﴿ **قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ اللَّهْوِ وَمِنْ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ** ﴾ [٧٢].

والعمل أو التجارة لا يضمن الرزق، وإنما يضمنه الله تعالى: ﴿ **وَمَا أَنفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ** ﴾ [٧٣]، ويقول: ﴿ **وَكَأَيِّن مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ** ﴾[٧٤]، فالرزق من الله وحده لكل خلقه، قال تبارك وتعالى: ﴿ **لِيَجْزِيَهُمْ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ [٧٥].

والتوكل على الله مأمور به، يقول تبارك وتعالى: ﴿ **وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيّاً وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيراً** ﴾ [٧٦] ويقول: ﴿ **وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً** ﴾[٧٧] ويقول: ﴿ **وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ** ﴾ [٧٨]. ويقول: ﴿ **فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾[٧٩] وهو

---

(٦٩) سورة البقرة: الآية ٣.

(٧٠) سورة الذاريات: الآيتان ٢٢ – ٢٣.

(٧١) سورة الذاريات: الآية ٥٨.

(٧٢) سورة الجمعة: الآية ١١.

(٧٣) سورة سبأ: الآية ٣٩.

(٧٤) سورة العنكبوت: الآية ٦٠.

(٧٥) سورة النور: الآية ٣٨.

(٧٦) سورة النساء: الآية ٤٥.

(٧٧) سورة الأحزاب: الآية ٤٨.

(٧٨) سورة الطلاق: الآية ٣.

القائل: لعباده ﴿ **أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ** ﴾ (٨٠).

والوكالة من الله كفالة وحفظ، وهو تعالى يقول: ﴿ **اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ** ﴾ (٨١).

ومن مجموع هذه النصوص معان قطعية جماعها أن الرزق عطاء السماء، وأن النعمة رزق، ومنها الصحة، والحياة، والفضائل.

والعمل للرزق مأمور به، ورسول الله يقول "خير الرزق بيع مبرور، وعمل الصانع بيده"، ورأى يد صاحب له قد أثر فيها العمل بها، فقبلها وقال: "هذه يد لا تمسها النار".

ولما أخبروه عمن انقطع للعبادة سأل "من يعوله؟" قالوا: أخوه. قال: "أخوه أعبد منه" فالعمل عبادة. يقول أمير المؤمنين عمر: (لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق، يقول: اللهم ارزقني؛ فإن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة)، ويقول: (والله لو جاءت الأعاجم بالأعمال، وجئنا بغير عمل، لهم أولى منا بمحمد يوم القيامة).

والسعي للرزق مشغلة الإنسان الكبرى، ولم تتركه السماء سدى، بل تعهده الكتاب الكريم بالتهذيب والتربية ليرضى ويشكر.

والأوامر والنواهي تتواتر في هذا الباب على معاني الرضا والشكر ﴿ **وَرَزَقْنَاكُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ (٨٢).

---

(٧٩) سورة آل عمران: الآية ١٧٣.

(٨٠) سورة الزمر: الآية ٣٦.

(٨١) سورة الشورى: الآية ٦.

(٨٢) سورة الأنفال: الآية ٢٦.

ومن النواهي: ﴿**وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً**﴾(٨٣).

والرضا والشكر مفتاحان للسلام النفسي الكامل، وللسلام الاجتماعي والعالمي جميعا.

يروي عبد الله بن مسعود قال رسول الله – ﷺ – لأمته: "إن الله قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا لمن يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب، والذي نفسي بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه، قالوا: وما بوائقه؟ قال: غشمه وظلمه، ولا اكتسب عبد مالا حراما فتصدق به وبارك الله فيه ولا يدعه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار".

(٨٣) سورة النساء الآية ٢٢.

المبحث الرابع

العمل والمال

الذين يقطعون الصلة بين المعاملات وبين الدين يفصلون بين شطري الإيمان وهما: الإقرار بالشهادتين، والعمل الصالح، والله قد جعل العمل دليلا على صدق العقيدة، وفي سائر الفرائض عمل، فالصلاة دعاء وذكر على مدار العمر، والصوم عمل بالجوع أو المشقة على مدار شهر في كل عام، والحج عمل شاق فيه دربة وتعليم وعبادة وتكافل، والزكاة عمل بالمال وتوزيع له على من يعمل به، أو يسد به حاجة، والله تعالى يقول: ﴿ **وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ** ﴾ (٨٤).

ولما جاء بيت الرسول من يستقلون عبادته شرح لهم المنهج عمليا ليوجه القعدة إلى أن يعمل، ويقول عليه الصلاة والسلام: "طلب الحلال فريضة بعد الفريضة" و"إن الله يحب العبد المحترف"، وعمر يقول للمتماوتين: "لا تميتوا علينا دينا".

وكان المهاجرون من مكة إلى المدينة يتواترون زرافات ووحدانا، ثم قدم رسول الله إلى "المدينة" فأصبح أهل المدينة "الأنصار" يقاسمون المهاجرين الأرزاق "بالعمل" في مال الأنصار: كان لسعد بن الربيع زوجتان، فقال لعبد الرحمن بن عوف: أيهما تختار؟ قال: لا، ولكن دلني على السوق، فدله، ولم يلبث طويلا حتى أبلغ رسول الله أنه تزوج، ومهر زوجته نواة من الذهب، ومن عمل المهاجرين في زراعات الأنصار كان عقد المزارعة في الشريعة أسبق في الوجود من عقد الإجارة.

وأسهمت تجارات السوق "المحلية" ثم السوق الخارجية، وأرباح الصحابة الكبار في حمل أعباء الحروب، وهكذا نشأ النشاط الإسلامي في الاقتصاد بالمدينة نشأة تعاون بين الناس، أو مع الدولة، فأصبح العمل – والعمل بالمال مع التعاون – في شتى وجوهه – أركانا أساسية للاقتصاد الإسلامي حتى الآن.

والتعاون فرض كفاية، وإن وجب بعضه، وليس الواجب على سبيل الكفاية أقل شأنا من الفرض الملزم، ومن أمثال الواجب على سبيل الكفاية واجب الجهاد وطلب العلم، والأمر

---

(٨٤) سورة التوبة: الآية ١٠٥.

بالمعروف والنهي عن المنكر، وصلات ذوي الأرحام، والإنفاق في سبيل الله بوجه عام، لو لم يقم بها المجتمع كان مرتكبا للمعصية، وإنما يجزئ عن المسلمين قيام بعضهم بها، وكثيرا ما يتعين على امرئ بذاته أن يقوم بها كالمتخصص أو القادر وحده، يقول تعالى: ﴿ **فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [٨٥] ليعلمنا أن العمل لا يسبقه شيء إلا أن يقف الإنسان بين يديه، وأن علينا ذكر الله وشكره باستمرار.

* * *

ولقد كان رسول الله ﷺ أكثر الناس عملا في الحرب والسلم والفكر والفعل – وعمل أبو بكر الصديق بالتجارة قبل الهجرة وبعدها، وفي خلافته، لرسول الله آية على أن الصدق وأمانة الأداء تتصدران كل عمل.

وهو عليم بحديثه ﷺ "إن من الذنوب ذنوبا لا تكفرها الصلاة ولا الصيام ولا الحج ولا العمرة، وإنما يكفرها الهموم في طلب المعاش" وحديثه: "إن الله يحب أن يرى عبده تبعا في طلب المعاش" وحديثه "الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله".

كان قبل الخلافة يحلب لجيرانه نياقهم، ويسأل اللواتي يجئن إليه: أأرغي أو أصرح؟[٨٦] ولم تلهه (حروب الردة) عن أن يحلب لهن.

وخرج بعد استخلافه يحمل ثيابا يبيعها، ليقوت أهل بيته فمنعه المسلمين وقدروا لهم درهمين عن كل يوم ليخلص للخلافة، وذات يوم سقط خطام ناقته من يده فنزل والتقطه – قالوا: هلا أمرتنا؟! قال: أمرني رسول الله ﷺ ألا أسأل الناس شيئا أي: (ما يقدر على عمله بنفسه) وبهذا يأمر ﷺ أن يعمل كل امرئ بيده فيما يخص نفسه ما يقدر على عمله وإن كان يستطيع تكليف غيره به.

ومن بعد خليفة رسول الله عمل عمر لله وللناس في خلافته، يسهر لياموا، ويحمل على كتفه الدقيق ويصطحب زوجته ليساعدا امرأة في ولادتها في الليل البهيم، ويعس ليتفقد أحوال

---

(٨٥) سورة الجمعة الآية ١٠.

(٨٦) الإرغاء تكوين الرغوة، والتصريح: ألا توجد رغوة.

الأمة بنفسه، ويجوع كما يجوع الناس، ويعلن لهم أن عليه أن يعنى بالناس وأن يعنيه ما يعنيهم، واشتد جوعه حتى هزل جسمه.

ومن بعد الفارق جاء عثمان – ذو النورين – وكان يحدر إلى الثمانين أو منها، وكانت أمواله من تجارته عونا للأمة في سلمها وحربها، حتى قال فيه رسول الله ﷺ: "ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم" وقال لأبي موسى الأشعري إذ يستأذن لعثمان في الدخول عليه: "بشره بالجنة على بلوى تصيبه" وبشره أبو موسى فدخل وهو يقول لأبي موسى: "الله المستعان" وبهذه البلوى تسور الثوار داره ظالمين، فأمر ألا تراق لأجله قطرة دم مسلم، واستشهد!!

وكان عثمان بن عفان يروي عن رسول الله ﷺ قوله "الصبحة [٨٧] تمنع بعض الرزق" وقوله: "إذا صليتم الفجر فلا تناموا عن أرزاقكم".

وجاء دور أمير المؤمنين علي، وهو بطل حروب النبي، احتكم هو وزوجته فاطمة الزهراء إلى رسول الله ﷺ فقضى أن عليه العمل في خارج الدار، وعليها العمل في داخلها، فكان يحمل الدقيق على كتفه ويقول:

لا ينقص الكامل من ... ما جر من نفع إلى

ولما تكاثرت على فاطمة الأعباء بولادة البنين واحدا إثر واحد، طلبت إلى أبيها أن يخدمها واحد من سبي الغنائم، فوصاها بالصبر، ثم جاءته مع بنتي ابن عم له تطلبان أن يخدمهما بعض السبي فنصحهما بتسبيح الله مائة مرة، وأخبرهما أن التسبيح خير لهما من خادم.

هؤلاء أربعة من العشرة المبشرين بالجنة.

والخامس: عبد الرحمن بن عوف، لم ير في عصره تاجر مثله؛ قاسم الله ماله الوفير مرات أربعة، وكان يجلس بين عبيده فلا يعرف بينهم، وأعتق في مرة واحدة ثلاثين عبدا.

وكما عمل هؤلاء في خدمة الإسلام عمل السادس والسابع من المبشرين بالجنة: طلحة بن عبيد الله، وقد أصيب يوم أحد بسبعين جراحة!! وكانت تجارته الخارجية تستخدم القوافل[٨٨]

---

(٨٧) الصبحة الغفوة في الصبح.

(٨٨) كانت غلة طلحة في اليوم ألفا أوقية، وكانت تركة الزبير ٥٧ ألف ألف درهم، أما عثمان فكانت آخر صدقاته للمسلمين ١٤٠ ألف دينار، سبقتها حمولة قافلة ٧٠٠ بعير ارتجت لها أنحاء المدينة، فجعلها لأهلها، ومن صدقات عبد الرحمن بن عوف في غزوة تبوك ٧٠٠ أوقية من الذهب سلحت ثلث الجيش (٣٠

والزبير بن العوام، وكانت له مجزرة بالمدينة، والزبير فارس النبي وفاتح حصن بابليون ليستسلم الرومان بمصر، وهو واحد من القواد الأربعة للجيش الذي أمد به عمر عمرا لفتح مصر، وقال له عنهم: كل واحد منهم بألف.

وأبو عبيدة وسعد بن أبي وقاص هما فاتحا الشام وفارس، لم يعرف للأول مال ولما فاجأه عمر في بيته وهو أمير الشام خرج يقول: (كلنا غرته الدنيا إلا أنت يا أبا عبيدة).

ولما عزم سعد أن يوصي للمسلمين بماله قال له ﷺ: "الثلث والثلث كثير".

أما سعيد بن زيد فكان يعمل لرزقه ويتعبد.

ورسول الله ﷺ لا يترك نصف الناس – وهو النساء – دون تكليف بالعمل، وفي ذلك قوله: "نعم لهو المرأة في بيتها المغزل" وقد كرمهن يوم وفدت على مجلسه وافدة النساء تطلب أن يأذن لهن بأن يعملن كالرجال معه "وعددت أعمالا" وأجابها بأن حسن تبعل المرأة لزوجها، وحملها منه يعدل ذلك كله – وهي إحدى بطلات الحروب كما تنبئنا كتب السيرة.

ومن دروس أمير المؤمنين علي للأمة أن صحابيا جاء يشكو أخاه إذ تزهد وترك العمل. فقال: علي به، وجئ به، فقال له: (يا عدو نفسه: لقد استهام بك الخبيث "الشيطان" أما رحمت أهلك وولدك؟! أترى الله أحل لك الطيبات وهو يكره أن تأخذها؟ أنت أهون على الله من ذلك).

والإمام جعفر الصادق إمام أهل البيت يحبب العمل إلى الناس فيقول عن شدائد العمل في الدنيا: (ليس لأحد وإن ساعدته الدنيا بمستخلص غضارة العيش إلا من خلال مكروه).

والإمام مالك يوسع أبواب العمل للمسلمين بقوله: (طلب الرزق ولو في شبهة أحسن من الحاجة إلى الناس).

وسفيان الثوري – وهو إمام في التصوف، والفقه، والزهد – يقول عن أموال تجيئه من مشاركة قليلة في الربح: (لولا هذه الدنانير لتمندل علينا الملوك).

والعمل للنفس كالعمل للناس سواء عند الله والناس، والسنة تأمر بأن يعطى الأجير أجره قبل أن يجف عرقه، وأن يعرف هذا الأجر قبل أن يبدأ العمل، وهو ﷺ يوصي بتعلم الحرف،

ألفا) وكان تمويل عثمان لهذا الجيش أكثر، ومن صدقات عبد الرحمن جهاز المحاربين بخمسمائة وألف فرس، وأربعين ألف دينار.

وحسبنا في هذا مثل واحد يوم جاءه من البدو رجل سأله، فقال ﷺ له: "أما في بيتك شيء؟ قال: بلى، حلس نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقعب نشر فيه. فأمره رسول الله ﷺ أن يأتيه بهما، فأتاه بهما، فقال للجالسين" من يشتري هذا؟، قال رجل: أنا. بدرهم، قال ﷺ: من يريد؟ قالها مرتين أو ثلاثا، قال رجل: أنا بدرهمين، وأخذهما رسول الله! وقال للرجل: "اشتر بأحدهما طعاما، وبالآخر فأسا فأتني به"، فأتاه به، فشد الفأس على عود، وأعاده إليه وقال له: "اذهب واحتطب ولا أرينك خمسة عشر يوما"، وعاد الرجل في الميعاد ومعه مال اقتصده. فقال له رسول الله ﷺ: "هذا خير من أن تجئ المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة".

فهو لم يعط صدقة يشتري بها أكلة أو أكلات، بل علمه حرفة مكتوبا لها الدوام. وعلم الأمة بيع "من يزيد".

ورأى عمر قوما قعودا بطالين [٨٩]، فنادى: من أنتم؟، قالوا: نحن المتوكلون، قال: بل أنتم الذين تأكلون أموال الناس بالباطل.

المبحث الخامس

العمل بالمال وتكليف العامل بابتغاء الأجرة

يكفي للباحث في أمر المال في الإسلام آيتان:

٤. ﴿ **الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً** ﴾ [٩٠].

٥. ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**﴾ [٩١].

وهذا القول موجه إلى قارون وقد آتاه الله من الكنوز ﴿ **مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ** ﴾ وقال له قومه ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ** ﴾ [٩٢].

---

(٨٩) من البطالة.

(٩٠) سورة الكهف: الآية ٤٦.

(٩١) سورة القصص: الآية ٧٧.

(٩٢) سورة القصص: الآية ٧٦.

فالمال في الآيتين مفضول بالعمل الصالح وصاحبه مكلف فيه بابتغاء الآخرة، والاقتصاد الإسلامي مفتوح للعمل الصالح والمال الطيب، وللوفرة والثروة إذا أدى الإنسان لأصحاب الحقوق ما يستحقون، ومنه الاتفاق في الزكاة وفي الصدقات وهي قيد عام على المال. بمثل أن الجهاد والاجتهاد أمران مندوب إليهما لكنهما يصيران فرض عين في حالات خاصة، وقد تتكاثر الحالات فيشترك في الالتزام بها كثيرون.

والمعاملات تجارة مع الله والناس، واكتساب الرزق فيها نهوض بحاجات الجماعة وأفرادها، وفيها مرافق ومهن في الزراعة والصناعة والتجارة وأداء الخدمات – وكان الأولون يؤثرون الصانع على الزارع، ومن الأقاليم ما يحوج إلى الزراعة فتكون طلبة المجتمع، لكن التاجر الصدوق يحترف أشرف الحرف. فمن العشرة الذين بشرهم صاحب الشريعة بالجنة خمسة بلغوا شأوا عاليا في التجارة، وكانت تجارة مع الله ورسوله ومع الناس، وكانوا يعملون بأنفسهم في أموالهم، أو بوكلائهم.

وفي الإنفاق تبعات على صاحب المال: فيتعين أن يكون اكتسابه من حلال، وإنفاقه في حلال، وألا يتخذ ذريعة لحرام، أو يكنز ليتكاثر، أو يمن به على أحد عند إنفاقه، أو يكون سببا للبطالة. وهذه واجبات ستة.

وهو تعالى يقول: ﴿ **لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ** ﴾[٩٣]. ليعلمنا أنه رقيب على كل نشاط، وأنه يجزي على كل عمل، ورسول الله ﷺ يقول: "إن أشد الناس عذابا يوم القيامة المكفي الفارغ".

وللنقود في الإسلام وظيفتها التي تواضع الناس عليها: أنها أداة تعامل، وليست سلعا تباع، أو يكون لها فائدة فيما عدا استعمالها كأثمان للعمليات الاقتصادية، ولذلك يأمر القرآن الكريم بعدم حجبها عن الأسواق من كنز أو شح، جاء في سورة التوبة: ﴿**وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ**﴾ [٩٤].

وقيمة المال في استعماله، وهو يتناقص بعدم الاستعمال أو سوء الاستعمال، ولذلك يأمر رسول الله ﷺ بالعمل في مال اليتيم حتى لا تأكله الزكاة في انتظار أن يبلغ اليتيم رشده.

---

(٩٣) سورة آل عمران: الآية ١٨٦.

(٩٤) سورة التوبة: الآيتان ٣٤، ٣٥.

ودوران النقود في مجال التعامل أداة تفريخ عن الناس، وتمكين لهم من حوائجهم، ومن أجل ذلك كان في كنز المال إفساد للتعامل بحرمان السوق – أو الناس – مما يكنزه الكانزون، إلى جوار حرمان الكانزين أنفسهم من تثمير المال، وليس أبأس من الذين يملكون العون ولا يعينون، والكانزون والمرابون، والسارقون في صعيد واحد من العذاب.

المبحث السادس

مال الدولة

إذا كان المسلم يحاسب على ماله في الدنيا والآخرة، فالدولة مسئولة عن حساب عمالها، وهي بدورها خاضعة للحساب.

كان عمر ينهي عماله عن الاتجار بمال الرعية، ويشاطرهم ما زاد عندهم من المال، وكان لا يدخل الخراج بيت المال إلا إذا شهد جماعة من الصالحين أنه لم يجمع بإعنات أو إرهاق، وكما كان أعدل الناس في جمع أموال الأمة كان أفطنهم في المحافظة عليها:

كتب إليه عمرو بن العاص بعد فتح مصر أن حاكمها المنهزم (المقوقس) يسأله أن يبيعه سفح "جبل المقطم" بسبعين ألف دينار، ورد عمر فأرسل إليه يسأله: لماذا يشتري جبلا ليس فيه بئر ولا ماء؟

فسأل المقوقس فأجاب: لأننا نجد صفته في كتبنا أن في أرضه غراس الجنة – ولما بلغ هذا الجواب عمر كتب إلى عمر: "إنا لا نعرف غراس الجنة إلا للمؤمنين، فاقترفها من قبلك من المسلمين".

وأمير المؤمنين يدرك بأساء المنهزم، وتعلقه بما خلفه، وأحلامه في العودة إليه، لكنه يحسن الجواب لعمر، ويلقن هذا السياسي الأشهر بين ولاته أن المسلمين أحق بوطنهم من المقوقس أو دولته.

المبحث السابع

التداين والقرض الحسن

للناس على صاحب المال إذا أقرضهم أن يكون "قرضا حسنا" أي: غير مشروط بمنفعة للمقرض عند اقتضاء دينه، وإلا كان قرضا محرما، لما فيه من "الربا"(٩٥)، وفي مقابل ذلك يلتزم المقترض بالرد في ميعاده، ولتيسير الرد على المقترض كانت نظرة الميسرة، وإذا تخلف عن الرد مع اقتداره على السداد كان ظالما وحق تعزيره، والعجز عن السداد في الميعاد عذر، لكن الامتناع عند القدرة مطال، أو بادرة غدر يحل به عرضه باللوم، وتحق مسئوليته بالإجبار على السداد، ولو احتاجوا لتعزيره عزروه.

والقرض الحسن مال طيب، والوفاء به وفاء بعهد، والله تعالى يأمر بالوفاء بالعهود، ورسوله ﷺ يقول لأمته: "عدة المؤمن دين"، وفي غزوة بدر كان ﷺ أحوج القواد إلى جندي واحد، لكن حذيفة قال له: إنه وأباه قد قطعا عهدا للمشركين ألا يحارباهم وتركوهما ليهاجرا إلى المدينة، وأضاف هو وأبوه: إن شئت قاتلنا معك – قال ﷺ: بل نفيان، ونستعين الله عليهم، وأعان الله بانتصار بدر.

ورسول الله يشجع على الوفاء بقوله: "من مشى إلى غريمه بحقه صلت عليه دواب الأرض وأنبت الله له بكل خطوة شجرة في الجنة"، وقوله: "لي الواجد ظلم يبيح عرضه وماله" وقوله: "مطل الغني ظلم" ويحذر من المطال فيقول: "إن لصاحب الحق مقالا"، ويحذر من الاستدانة مع نية عدم السداد، فيقول: "من أدان دينا وهو يحدث نفسه بقضائه أعانه الله، أما من أدان دينا وفي نيته عدم الوفاء فهو سارق".

ولا يبرأ المدين من المسئولية عن الوفاء إذا مات عن غير مال يستد به دائنه، فرسول الله يسأل إذا جاءه القوم بميت للصلاة عليه: هل ترك دينا وليس في تركته ما يسدده؟ فإن قالوا: نعم قال لهم: صلوا على صاحبكم، ورفض أن يصلى عليه.

---

(٩٥) وهو موضوع الفصل الثاني من الباب الرابع من هذا الكتاب.

وروى أبو سعيد الخدري: كنا مع رسول الله في جنازة، فلما وضعت قال: هل على صاحبكم دين؟ قالوا: نعم، درهمان – فقال علي: هما علي يا رسول الله، قال ﷺ "جزاك الله عن الإسلام خيرا، وفك رهانك كما فككت رهان أخيك".

والله تعالى يقول: ﴿ **وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ** ﴾ (٩٦) فالنظرة حتى يزول الإعسار لطف من الله بالمعسر حتى يستعيد قدرته على الوفاء، ونبي الله يحث على إنظار المعسرين بقوله: "من أنظر معسرا – بعد حلول الدين – جزاه الله بكل يوم صدقة".

والفقهاء على أن المدين لا يخرج من حالة الإعسار إذا كان يملك دارا، أو ثيابا تجمله، أو يستخدم خادما أو أداة انتقال أو حرفة أو أكثر ما دامت به حاجة إليها – وهكذا يرتفع الفقه بالحد الأدنى لمعيشة المسلم.

والقرض أداة إسهام في "تدفق المال" في مصلحة المقترضين والمساكين والمحتاجين، كسائر الصدقات، فهذه معونات، منها المرئي، ومنها ما لا يعرفه إلا الله، وهو خير الصدقة.

والرسول الكريم يشجع على سداد الدين بقوله: "أفضل الأعمال أن تدخل في أخيك سرورا، أو تقضي دينه، أو تطعمه خبزا".

وقد خص الشارع سداد الدين بسهم من أسهم الزكاة، لأثر القرض الحسن في سداد الحاجات للضعفة العاجزين عن السداد، وهو وجه سيولة للنقود تنتعش به الأسواق والمجتمعات، وكلما سدد مدين قرضه أمكن المقرض أن يتصدق من جديد إن لم يكن محتاجا للمال.

ورد الدين قضاء حق ووفاء بعهد، والأصوليون ينقلون عن "سحنون" واضع مدونة مالك قوله: "رد دانق – سدس درهم – مما حرم الله تعالى أفضل من سبعين ألف حجة تتبعها عمرة مبرورة، وسبعين ألف فرس في سبيل الله، وسبعين ألف بدنة، وسبعين ألف رقبة مؤمنة من ولد إسماعيل".

قالوا: لأن رد الدانق رد مظلمة فهو واجب، وما عداه تطوع، والتطوع – وإن كثر – لا يقوم مقام الواجب وإن قل.

---

(٩٦) سورة البقرة: الآية ٢٨٠.

ولما فتح الله الفتوح على المسلمين كان ﷺ يقول: "أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن توفي من المؤمنين فترك دينا فعلي قضاؤه".

وإنما تساهلوا عند العجز عن السداد تضامنا مع المعوز، وتشددوا مع المماطل ليشجعوا المقرضين على التعاون بالإقراض وبالرد، وكانوا يؤثرون في صدقاتهم الإقراض والرد، ثم إقراض المال نفسه ثم رده.

فهذه دورة للمال مندوب إليها، أو دورات.

والإمام جعفر الصادق يقول: ألف درهم أقرضها مرتين أحب إلي من أن أتصدق بها.

والرسول ﷺ يقول: "أعطوا السائل ولو جاء على فرس".

وسأل الإمام جعفر الصادق – شيخ أبي حنيفة ومالك – واحدا من شيعته: ما بال أخيك يشكوك؟ وأجاب الرجل: يشكوني إذ استقصيت عليه حقي عنده.

قال الإمام جعفر الصادق – شيخ أبي حنيفة ومالك – واحدا من شيعته: ما بال أخيك يشكوك؟ وأجاب الرجل: يشكوني إذ استقصيت عليه حقي عنده.

قال الإمام: كأنك إذا استقصيت حقك عليه لم تسئ إليه؟ أرأيت ما حكى الله عن قوم يخافون سوء الحساب؟ فمن استقصى فقد أساء، وتلا قوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ** ﴾ (٩٧).

السوال: وكان الإمام جعفر يقول: إنما المعروف ابتداء، فأما ما أعطيت بعدما سأل السائل فإنما هو مكافأة مكان ما بذل من ماء وجهه.

ولحفظ ماء الوجه سموا السؤال في القرن الثاني للهجرة الزوار.

ورسول الله ﷺ يستقبح أن يكون السؤال حرفة، ويحدد حالاته بقوله لصاحبه "يا قبيصة، إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة، فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله، فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش، ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوي الحجة من قومه: لقد أصابت فلانا فاقة،

---

(٩٧) سورة الرعد: الآية ٢١.

فحلت لـه المسألة حتى يصيب قواما وسدادا من عيش، فما سواهن يا قبيصة سحت، يأكل صاحبها سحتا".

المبحث الثامن

الملك

١- حصل الفقه أصل الملكية في القاعدة ٨٦ من قواعد ابن رجب الحنبلي فيما يلي: إنما مالك الأعيان خالقها سبحانه وتعالى، وإن العباد لا يملكون سوى الانتفاع بها على الوجه المأذون به شرعا، فمن كان مالكا لعموم الانتفاع فهو المالك المطلق، ومن كان مالكا لنوع فيه فهو ملك مقيد، ويختص باسم خاص كالمستأجر والمستعير وغير ذلك.

٢- والحيازة في المنقول سند ظاهر للملكية حتى يثبت الغصب أو النصب أو السرقة.

٣- والملكية مصونة (وللملك حرمة) بمثل ما أن (للنفس حرمة)، والإسلام يعاقب على سرقة المال بحد يلي حد الزنا في الشدة، لما في الجريمتين من عدوان على النفس أو العرض أو النسب أو المال، وإذا عفا المجني عليه في السرقة، أو تصالح قبل التبليغ ففي الصلح خير، والعفو أعلى درجة، وفي عام المجاعة لم يتحقق معنى السرقة للجياع الذين سرقوا ناقة ليأكلوها.

٤- والشارع – بوجه عام – يحمل الملك بآية السرقة ﴿ **وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنْ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ (٩٨)، ولما سرقت فتاة من قريش وسط القوم إلى رسول الله أسامة بن زيد–، فقال له ﷺ: "أتشفع في حد من حدود الله؟" ثم قام خطيبا فقال: "يا أيها الناس إنما ضل من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها.

وفي أحكام القرآن للجصاص عن عبد الله بن مسعود قال: "لا تقطع اليد إلا في دينار أو عشرة دراهم".

٥- ومعنى السرقة: أخذ المال على وجه الخفية والاستتار، ومسارقة النظر إذا كان يستخفي بذلك، فإن اختطف أو اختلس لم يكن سارقا، وهناك قول فقهي بقطع يد المختلس، والفقهاء على غير ذلك، لروايات عن رسول الله ﷺ: منها "وليس على الخائن ولا على

---

(٩٨) سورة المائدة: الآية ٣٨.

المختلس قطع" وعن جابر أنه قال "ليس على المنتهب قطع"، فالسرقة إذن: أخذ في خفاء، وإذا لم تنطبق شروط الحد وقعت عقوبة التعزير.

والإمام أحمد بن حنبل يروي عن أم المؤمنين عائشة قولها: "إن المخزومية التي قطع رسول الله يدها كان تستعير المتاع وتجحده، فأمر النبي بقطع يدها، ويقول الإمام أحمد عن هذا القول "لا أعرف شيئا يدفعه".

والفارق بين السرقة وبين جحود الودائع والديون والعواري كبير، فالسرقة أخذ للشيء، وما عداها منع للحقوق، وأكثر أهل العلم يشترطون أن يكون المسروق في حرز، ويخرجه السارق منه – أما الظاهرية فيقررون أن السرقة بحسب النص هي كل أخذ للشيء على سبيل الاستخفاء.

فمعنى هتك الحرز واضح في الفقه، وهو موضع الأمانة التي ينتهك السارق حرمتها، فإذا لم يتحقق هذا الانتهاك تحققا كاملا فلا تقطع اليد، ويجوز عندئذ التعزير، ولا قطع لمن سرق من بيت المال، لأن للمسلم فيه حقا، فيكون شبهة في توقيع الحد، ورسول الله ﷺ يقول "تدرأ الحدود بالشبهات" (٩٩).

٦- والشارع يحمي الملكية الأدبية، وقد خلف لنا التاريخ في ذلك قضية التلاميذ في جامع عمرو بمصر: كان عبد الرحمن بن القاسم – من كبار تلاميذ مالك – يعلم الفقه المالكي، وجاءه أسد بن الفرات بأسئلة تعلمها على محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة في بغداد، التمس فيها إجابات من ابن القاسم، ونقل الإجابات تلاميذ أبي القاسم بغير موافقة أسد فشكاهم إلى القاضي، فحكم له ضدهم، وسألهم: لماذا لم تكتبوا مثله – لكنه في خارج الجلسة علم أسدا ألا يضن بالعلم عليهم، فأذن لهم.

وعاد أسد "بالأسدية" إلى تونس يعلم فقه مالك، ويعلم فقه الدولة الرسمي بمذهب أبي حنيفة، ونقلها تلميذه "سحنون" وخف بها إلى مصر يعرضها على ابن القاسم، فأجرى فيها تصحيحات أو تعديلات، وأضاف إليها سحنون إضافات وسماها "المدونة" فصارت السجل الكامل لفقه مالك للآن، وانتقلت إلى المغرب والأندلس وجعلها القضاء شعارا للحضارة الفقهية، فكان الأندلسيون لا يأذنون لعالم أن يعلم سواها. وأسد هو قائد الأسطول الذي فتح صقلية للإسلام وفيها قبره.

---

(٩٩)

٧- ويجوز أن يقطع الإمام الأرض لمن يعمل فيها إذا كان لها ساكن وانقرض، فصار أمرها إلى الإمام، أو كانت من الأرض الموات التي لم يحيها أحد بوضع اليد أو بالشراء أو بالميراث، مسلما كان أو معاهدا. ويشترط بعض المذاهب إذن الإمام، وبعضها لا يشترط، وقد وهب رسول الله ﷺ أمية بن خلف واديا بتمامه ليس له مالك – وجاءه الداريون بعد انصرافه من "تبوك" قال زعيم لنا جيرة من الروم لهم قريتان، هما جيرون، وبيت عينون، فإن فتح الله عليك الشام فهبهما لي، قال ﷺ: (هما لك) وأقام الوفد بالمدينة حتى توفي رسول الله ﷺ فكتب لهم أبو بكر كتابا بذلك.

٨- ولما جاء فاتحو العراق إلى أمير المؤمنين عمر مطالبين بملكية الأرض المفتوحة باعتبارها من غنائمهم استشار المهاجرين الأولين، فاختلفوا، ورأى عمر بقاء الأرض لأصحابها، وفرض الخراج أو الجزية عليهم، فأرسل إلى عشرة من الأنصار: خمسة من الأوس، وخمسة من الخزرج، من أشرافهم وكبرائهم واجتمع المهاجرون والأنصار للأمر العظيم في تاريخ الإسلام، قال لهم: إني واحد كأحدكم، وأنتم اليوم تقرون بالحق، خالفني من خالفني، ووافقني من وافقني، معكم اليوم كتاب ينطق بالحق (يقصد القرآن) فوالله ما أريد إلا الحق، وبقيت المسألة ثلاثة أيام حتى فتح الله عليه بالقرآن – كما رواه – الزهري بالاستناد إلى الآيات من ٦ – ١٠ من سورة الحشر، مع الآية الأولى من سورة الأنفال.

ثم قال: أرأيتم هذه الثغور؟! لابد لها من رجال يلزمونها؟ أرأيتم هذه المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر، لابد لها من الشحن بالجيوش وإدرار العطاء عليهم؟ فمن أين يعطي هؤلاء إذا قسمت الأرضون إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال ويجري عليهم ما يتقوون به؟

٩- وفيما عدا الأرض فالإمام مخير في الغنائم، يقسمها أو يتركها للفاتحين، إن قسمها فيقول الله تعالى في سورة الأنفال، وإن تركها فبعمل رسول الله في فتح مكة، وإن قسم على قوم معينين فبعمله في أرض خيبر.

١٠- ومن حرمة الملكية جاز القتل دفاعا عنها، وقال الرسول الكريم: "من قتل دون ماله فهو شهيد".

المبحث التاسع

حسن استعمال المال والرحمة بالحيوان

والحقوق في الإسلام تنشأ مقيدة بتقوى الله فيها، ومن أظهر هذه القيود حسن الاستعمال، ومنها كانت الرحمة بالحيوان واجبا على الإنسان.

والرحمة حق الله على خلقه، يقول جل ثناؤه: ﴿ **اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ** ﴾ (١٠٠)، ويقول: ﴿ **وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ** ﴾ (١٠١)، ويقول: ﴿ **وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ** ﴾ (١٠٢)، وهو تعالى قد كتب على نفسه الرحمة.

وكان ﷺ يقول: "من لا يرحم لا يرحم".

سمع أعرابيا يقول: اللهم ارحمني ومحمدا، ولا ترحم معنا أحدا، فقال له: "لقد حجرت واسعا يا أعرابي".. وأي حجر!!.

ويقول ﷺ لصحبه: "بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، وجد بئرا فنزل فيها وشرب منها، ثم خرج فإذا كلب يلهث، فنزل البئر وملأ خفه ثم أمسكه بفيه، فسقى الكلب فغفر الله له".

ولقد سألوه يوما: يا رسول الله، إن لنا في البهائم لأجرا؟ وأجاب: "في كل ذات كبد حدي أجرا".

وهو القائل: "دخلت النار امرأة في هرة حبستها ولم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض" وشهده المسلمون يصغي الإناء للهرة لتروي حتى تشبع.

ولقد شهده المسلمون على رأس عشرة آلاف مقاتل لفتح مكة، لهم ضجة ورجة، رأى كلبة تسهر على أولادها فألزمها جعيل بن سراقة حتى يمر الجيش دون أن تصاب بأذى، أو يصاب صغارها.

---

(١٠٠) سور الشورى: الآية ١٧.

(١٠١) سورة الأنبياء: الآية ٤٧.

(١٠٢) سورة الأعراف: الآية ١٥٦.

وسمعوه إذ مر ببعير لصق بطنه بهره من الجوع، فقال "اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة، فاركبوها صالحة وكلوها صالحة".

وكان ينهى عن ضرب الحيوان في وجهه، أو وسمه في وجهه، ويقول: "إن الله يحب الإحسان في كل شيء، فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته".

ورأى رجلا أضجع شاة يحد شفرته فقال له: "أتريد أن تميتها موتات؟! هلا حددت شفرتك قبل أن تضجعها؟!".

وجاءه أعرابي بفراخ طائر وضعهن في كسائه، وجاءت أمهن فطارت فوق رأسه، وأمره النبي ﷺ: "بوضعهن موضعهن، جاءت الأم فأبت فراقهن، قال ﷺ اذهب فضعهن حيث أخذتهن، والذي بعثني بالحق لله أرحم بعباده من أم الفراخ بفراخها، ارجع بهن فضعهن من حيث أخذتهن، وأمهن معهن".

١- وتأسى المسلمون بهذه الأسى العظيمة لنجد الإمام أحمد بن حنبل – بعد نيف وقرنين – مدعوا لدى الخليفة المتوكل، فاصطحب تلميذا له وضع معه طعامه الخاص، وفيما هو في الطريق جلس الإمام وتلميذه يطعمان (كوز ماء ورغيفا) وأغرت سماحة وجهه كلبا شهدهما، فوقف أمامهما وحرك ذنبه كالمستأذن، فراح أحمد يقاسمه غذاءه: لقمة لقاء لقمة، وخاف التلميذ أن يضرب الكلب بقوت الإمام، فنحى الكلب من بين يديه، واحمارَّ وجه إمام المسلمين، ولم يعز تلميذه في الخطاب، واكتفى بأن قال له يعلمه: "لها أنفس سوء".

٢- حتى دودة القز يرحمها أحمد في معرض استعمال الحقوق، سألوه عن تشميس دودة القزة لتموت في نسيجها قبل أن تقرضه؟ فأجاب إذا لم يجدوا منه بدا، ولم يريدوا تعذيبه بالشمس، فليس به بأس. فهو لا يبيح تعريض الدودة للشمس إلا لضرورات الصناعة، وهو المبدأ في التعامل مع الحيوان: يستخدم لمصلحة، وبإحسان.

٣- والأصل في هذا قوله ﷺ "من قتل عصفورا عبثا عج إلى الله عز وجل يوم القيامة يقول: يارب قتلني عبثا ولم يقتلني لمنفعة".

ومن حسن استعمال الحق نرى الإنسان مكلفا بأن ينتفع به الانتفاع الذي أعد له، وهو بوجه عام ممنوع من إتلافه كمنعه من إتلاف ملك غيره، أو ما ليس مملوكا لأحد، فالله قد خلق الأشياء لحكمة، وهو يقبل التغيير للمنفعة، وهو تبارك وتعالى يقول: ﴿ **وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ**

مُفْسِدِينَ ﴾ [١٠٣]، ويقول: ﴿ **وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾** [١٠٤].

والخلافة في الأرض تمنع من الفساد، والسوي لا يتلف الأشياء لشهوة، وإنما يغيرها أو يطورها لمصلحة له أو للناس.

وإذا كان الإسراف في الماء – ولو على نهر جار – وجه إتلاف، فكذلك كل إتلاف أو إسراف.

---

(١٠٣) سورة العنكبوت: الآية ٣٦.

(١٠٤) سورة الرعد: الآية ٢٥.

الفرع الثاني

منظومة التعاون

المبحث الأول

تعاون المجتمع

يقول بعض المعاصرين: إن الاقتصاد الإسلامي قائم على التعاون، فالعمل بين أن يكون عملا بنفس العامل أو عملا من صاحب المال به أو بشركة مع غيره كالمقارضة بين صاحب المال للعامل به، أو الشركة التي يضع الشركاء شروطها – والمسلمون عند شروطهم.

والتعاون في هذا الفرع ليس مقصودا به أن الإنسان مدني بالطبع، وإنما المقصود به معنى اقتصادي فيه حقوق وواجبات وأسس لبناء الأمة والدولة.

والتعاون ظاهر في وجوه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو تعالى يأمر به المسلمين أمرا حاسما بقوله تعالى: ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ** ﴾ (١٠٥)، وقوله تعالى: ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا** ﴾ (١٠٦)، وقوله: ﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** ﴾ (١٠٧)، وقوله: ﴿ **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ** ﴾ (١٠٨)، وقوله: ﴿ **إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً** ﴾ (١٠٩) والأمة الإسلامية أمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

١- الواجبات الكفائية تجعل المسلمين متعاونين في فروض من ألزم الفروض وأعظمها خطرا كالجهاد والتعليم. والواجب العيني نفسه يجعلهم متعاونين، وكصلاة الجمعة كل أسبوع،

---

(١٠٥) سورة المائدة: الآية ٢.

(١٠٦) سورة آل عمران: الآية ١٠٣.

(١٠٧) سورة التوبة: الآية ٧١.

(١٠٨) سورة آل عمران: الآية ١١٠.

(١٠٩) سورة الأنبياء: الآية ٩٢.

وصلاة الجماعة في كل الفروض، وهي تعدل صلاة الفرد سبعا وعشرين مرة، وفي كل عمل جماعي وجه تعاون.

٢- في فرض الزكاة معونة من القادر لغير القادر، تحددت السهام، وتعددت المصارف ليصيب منها أكثر المحتاجين في الأمة ثم أطلق الشارع الصدقات وكثرها وحسنها وأثاب عليها، ليقبل عليها المسلم كإقباله على صلاة الجماعة.

٣- والتعاون على تحرير الرقاب مفروض على مالك الرقبة، وقد جعله الله مصرفا من مصارف الزكاة، وأمر بمكاتبة الرقيق إذا طلب، كما جعل التحرير كفارة. وتكاثرت سنن الرسول في هذا الشأن، وهو - ﷺ - يجعل جزاء ظلم العبد عتقه، ويلزم كل صاحب رقيق أن يطعمه مما يطعم، ويلبسه ممن يلبس، كعضو في العائلة له حقوق مقررة.

وقال تبارك وتعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ** ﴾(١١٠).

وفي هذا الباب الواسع وضع عمر قاعدة للتفريخ على المكاتبين بالإذن بإيداع المقابل في بيت المال إن رفض السيد تسلمه تعطيلا للتحرير.

كان الصحابة زعماء في التحرير، وقد خلد التاريخ صنيع أبي بكر بمقولة تجري على الألسن: "أبو بكر سيدنا، وقد حرر سيدنا" يقصدون مؤذن الرسول بلال بن رباح.

٤- وفريضة الشورى تعاون وفي البيعة للإمام وطاعته وجوه تعاون.

٥- وفريضة الصوم توجيه للتعاون مع الجياع والظماء.

٦- وفريضة الحج أداة تعاون من كل فج عميق.

٧- ونفذ الرسول الكريم وصحبه التعاون في الضرورات وفي الحاجات والمباحات إليك بعض الأمثال:

أ- يقول عليه الصلاة والسلام: "إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو حملوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموا بينهم في إناء واحد، فهم مني وأنا منهم" وقد أمر بمثل ذلك في بعض الغزوات.

---

(١١٠) سورة النور: الآية ٣٣.

ب- ويروي عنه أبو سعيد الخدري: "من كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له،" قالوا: فما زال يعدد المال حتى ظننا أن ليس لأحد منا حق في فضل.

ج- والحديث الثالث نختاره من عمله - ﷺ - في غزوة خيبر: كان البرد زمهريرا، وأمرهم رسول الله - ﷺ - بقوله: "من له لحاف فليلحف من لا لحاف له". ولم يكن لتابعه أبي رافع لحاف، فألحفه عليه الصلاة والسلام معه بلحافه الكريم.

٨- كان أبو بكر أنموذج تعاون المسلم مع جيرانه كما أسلفنا، ولما حارب حروب الردة من أجل الزكاة كان يدافع عن التعاون.

٩- وعلى هذا النهج سار عمر:

أ- رأى رجلا يشتري لحما يومين متتابعين، فقال له: (هلا طويت بطنك لجارك وابن عمك؟!).

ب- ورأى رجلا من أهل الذمة جائعا - وكان طاعنا في السن - فأخذ بيده إلى صاحب بيت المال وقرأ عليه ﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ..**﴾ وهذا من مساكين أهل الكتاب، فأعطاه حقه منه، ورفع الجزية عنه.

ج- وفي طريقه إلى دمشق مر بمرضى من النصارى "فأجرى" عليهم القوت، فصار راتبا لهم، وأمر بأن يعاونوا من صدقات المسلمين.

١٠- وكان الصحابة يعيشون متعاونين - مهاجرين وأنصاراً - في العمل والملك والتناصح، لا يفترقون إلا أن يتلوا معا سورة العصر: ﴿ **وَالْعَصْرِ، إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ، إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾ والتواصي تعاون.

١١- والتناصح تعاون قال رسول الله ﷺ: "الدين النصيحة. قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم".

والله تعالى هو القائل: ﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ** ﴾، والولاية قرابة أو مناصرة.

١٢- والله - جل شأنه - جعل عدم الحض على طعام المسكين تكذيبا بالدين، فقال في سورة المعاون: ﴿ **أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ، فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ، وَلا يَحُضُّ عَلَى**

طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ [١١١]، بل جعل عدم التحاض جريرة عامة في الأمة، حيث قال: ﴿ **كَلاَّ بَل لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ، وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ** ﴾ [١١٢].

يقول الإمام محمد عبده: "وإنما ذكر التحاض على الطعام، ولم يكتف بالإطعام، ليصرح لك بالبيان الجلي أن "أفراد الأمة متكافلون" والتكافل آية تعاون.

ولقد ذم الله تعالى أمة بأنهم: ﴿ **كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ** ﴾ [١١٣]، ولما استثنى الله من الخسران استثنى: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾ [١١٤]، والتواصي بالحق وجه تكافل، وتداول للأشياء وتفاعل.

١٣- والمعروف عند المفسرين: أمر جامع لكل ما عرف من طاعة الله من وجوب أو ندب، والمنكر كل ما طلب الشارع تغييره على سبيل التحريم أو الكراهة، ومن المعاصي صغائر يجعلها التكرار كبائر بالتكاثر، إذ تصبح سوء سلوك، في حين يتواءم المجتمع بالنزاهة ويتلاحم ويتصاون للحفاظ على القيم الصحيحة ولو كان في ذلك وجه مشقة.

١٤- وفي الأسرة يقول صاحب الشريعة: "أفضل الصدقة صدقة على ذي الرحم الكاشح" ويقول "الصدقة على المسكن صدقة، وعلى ذي الرحم نتنان".

١٥- ونظام الميراث يجمع على تركة واحدة فروع شجرة الميراث والنسب والقرابة بنظام بالغ الإحكام في التعاون.

١٦- ومثله نظام النفقات فكل من ينطبق عليه وصف الوارث يحق له – أو عليه – أن ينفق – أو ينفق عليه – من شجرة الأسرة.

وفي تضامنها يقول الشيخ أحمد إبراهيم في كتابه (نظام النفقات) "القاعدة الكلية لذلك أن غني الأسرة ينفق على فقيرها، سواء أكان الغني صغيرا أم كبيرا، عاقلا أم مجنونا، والفقير كذلك، واعتبر الشارع نفقة الغني على أقاربه الفقراء بما يدفع حاجة الفقير بمنزله نفقته على نفسه، وهذا صنيع حسن جدا يقضي به تضامن "الأسرة كلها".

---

(١١١) سورة الماعون: الآيات: ١، ٣.

(١١٢) سورة الفجر الآيتان: ١٧، ١٨.

(١١٣) سورة المائدة: الآية ٧٩.

(١١٤) سورة العصر: الآية ٣.

وفي التزامات الزوج بأصناف النفقات تمكين للأسرة، وتوزيع بديع للتبعات يقتضيه حسن التبعل، ومن هذا الباب الواسع تؤخذ نفقة الحامل المتوفى زوجها من نصيب حملها المحجوز له حتى يولد.

١٧- وحقوق الجار ميدان فسيح للتعاون – يقول الله تعالى: ﴿ **وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ** ﴾ (١١٥)، فالجيران طوائف لا طائفة واحدة.

(أ) وقد شرح رسول الله – ﷺ – وصاة الله تعالى بالجار أبلغ الشروح حيث قال: "ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه" وإنما أراد معنى عاما: هو أن يجعله كواحد من الأسرة، أو أن يجعل له حقا في مالها، ولقد أدخله – ﷺ في صميم الإيمان بقوله: "ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم".

– بل يحلف بالله مثنى وثلاث على حقوق الجار "والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن"، قالوا: من يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه.

فهذان حقان في الطعام والأمان التام، والله تعالى يصف نفسه بأنه ﴿ **الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ**﴾ (١١٦).

– وحق ثالث: هو حقه في العفو عنه، فمن مكارمه – ﷺ – سؤاله عن الجار اليهودي الذي تعود أن يضع الشوك في طريقه، وهداه الصفح فدخل في الإسلام.

– ويشرح القسطلاني وصية جبريل بالجار. فيقول: "يوصيني بالجار مسلما كان أو كافرا، عابدا أو فاسقا، صديقا أو عدوا، غريبا أو بلديا، ضارا أو نافعا، قريبا أو أجنبيا قريب الدار أو بعيدها".

وفي شرح حديث آخر يقول القسطلاني: "الجار ذو الرحم له ثلاثة حقوق، والجار القريب المسلم له حقان، والجار فقط له حق واحد، وهي كأخوة الإسلام التي جاء بها جبريل".

---

(١١٥) سورة النساء: الآية ٣٦.

(١١٦) سورة قريش: الآية ٤.

وفي هذا الإطار ندرك تعبد عبد الله بن عمر – وكان أكثر الناس تتبعا لآثار رسول الله – حيث كان عبد الله يقول لخادمه: "إذا ذبحت فابدأ بجارنا اليهودي" ونرى هنا إيثارا لليهودي أو الذمي إذا كان بين الجيران، وما هو إلا اتباع لرسول الله – ﷺ – إذ نهى عمر عن تهديد يهودي خاشن الرسول بالمطالبة بدين لم يحل أجله، فقال – ﷺ – "أنا وصاحبي أحق بغير هذا منك. تأمرني بالأداء، وتأمره بحسن الاقتضاء" ولما حل الأجل وفى الدين وزاد الدائن، فأسلم الرجل.

(ب) وهو عليه الصلاة والسلام يزيد عدد الجيران على عاتق المسلم لزيد مجتمعه قوة وسعة فيقول "إن أربعين دارا جار".

والدار – كما يعرفها الدامغاني في الأشباه والنظائر في القرآن – "قد تكون البيت، وقد تكون المدينة".

فللأسرة مسكن أو بيت، وقد يكون في الدار بيوت، وقد يكون في البيت الواحد غرف، أو مسكن، في كل منها أسرة، وقد يكون في الدار الواحدة بيوت كثيرة أو حوانيت.

والأوزاعي إمام الشام في القرن الثاني الهجري يروي بدلا عن الأربعين: مائة، ويضيف أنها مائة من كل ناحية أي: تصبح أربعمائة، وأي هذا كان فأربعون دارا أو مائة يمكن أن تكون بلدة أو مدينة.

١٨- المواطنة: الإسلام يجعل "المواطنة" لحمة، والمسلمون يقولون: حب الوطن من الإيمان، والمسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضا، ولغير المسلم وعليه ما للمسلمين وعليهم في هذا الباب.

ويقول رسول الرحمة ".. ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره..".

١- والمواطنة جيرة في كثير من الأمور، وأكثر المواطنين بين مسلمين وأهل ذمة، وأكثر من عداهم "مستأمنون" لهم أوضاع الضيوف الجديرين بالعناية الخاصة، وللضيف أن نعتبره واحدا من أهل الدار ما أقام فيها، وعندئذ ينعم الأجنبي بالمساواة في الحقوق إلا ما يحرمه منه النظام الإداري أو السياسي.

٢- ومن الفقه ما يصل أهل الذمة بأموال "الزكاة". وتكاثر استخدام الأجانب والتعويل عليهم يؤدي إلى أحسن النتائج بالنسبة إليهم، وإن لم تكن دولهم تعامل المسلمين بالمثل.

ولقد طالما أكرمت الدول الإسلامية منذ العصر الأول مثواهم بالمدينة المنورة وفي بغداد ودمشق والقاهرة، وما تزال الدول الإسلامية على العهد من حسن التعاون مع العالم.

وعندما يسجل التاريخ لثغر تنيس بمصر أن ألف سفينة تجوب البحار بينها وبين شواطئ البحر المتوسط بتجارات هذا البحر، فهو يعلن السماحة والأمان والسلام بألف دليل، في عصر لاحق لغزو الصليبيين لمصر والشام، كما يسجل سماحة مصر للذين حاربوها حروبا أربعة في ربع قرن من القرن العشرين للميلاد متعبدة بقول صاحب الشريعة: "أد الأمانة لمن ائتمنك ولا تخن من خانك".

١٩- والتكافل لحمة: في القرن الحادي عشر الميلادي "الخامس الهجري" أعلن ابن حزم من تطبيقات حديث رسول الله – عليه الصلاة والسلام – "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه" فقال: "إن فرضا على الأغنياء من "كل بلدة" أن يقوموا بفقرائهم، ويجبرهم السلطان على ذلك" وقال "يقام لهم ما يأكلون من القوت الذي لابد منه، ومن اللباس في الصيف والشتاء، وبمثل ذلك من مسكن يكنهم من المطر وحر الصيف، ومن عيون المارة، فإن من ترك أخاه يجوع ويعرى فقد أسلمه"، ثم يستشهد بكلام أمير المؤمنين على: "إن الله فرض على الأغنياء في أموالهم ما يكفي فقراءهم، فإن جاعوا وعروا فبظلم الأغنياء".

٢٠- ومن التكافل عند المسلمين كانت الصدقة الخفية في البيع والشراء، والمساهلة في المعاملة، والسخاء في العطاء يقول عليه الصلاة والسلام: "من قلل قلل له، ومن كثر كثر له".

وكان الإمام أحمد بن حنبل يأتدم بالخل، ويعيش على درهم في اليوم، لكنه إذا أولم لضيف أولم بشاة مصلية تحف بها ألوان الطعام، وحضر مرة وليمة للعلماء ظهر البذخ فيها فقال: "لو أن الدنيا جمعت حتى تكون في مقدار لقمة ثم أخذها مسلم ووضعها في فم أخيه المسلم لما كان إسرافا".

٢١- والكلمة الطيبة صدقة ولو قيلت لغني موسر.

٢٢- ومن ترك مسلما في حرج دون أن يمد له يدا فهو مسئول عن تركه كمسئوليته عن دفع الضر عنه، والدعاء للمسلم صدقة والرحمة بالغير صدقة. والضيافة منها ما يكون صدقة. وقبول الدعوة معروف وتأليف للقلوب.

– روى عبد الله بن بشر: كنا قاعدين على باب دارنا إذ أقبل رسول الله ﷺ على بغلة، قال أبي: ألا تنزل يا رسول الله فتطعم وتدعو لنا بالبركة؟ فنزل وطعم وقال: "اللهم ارحمهم واغفر لهم وبارك لهم في رزقهم" فما زلنا نعرف من الله تعالى السعة في الرزق.

– ودعا عليه الصلاة والسلام للمدينة قبل ذلك: "اللهم بارك لنا في مدنا وصاعنا، واجعل لنا مع البركة بركتين" وما تزال بركة المدينة تفيض على أهل الإسلام: راحة من عناء، وطيب هواء، والمسلم يجد فيها أحسن موطن له.

٢٣- ونظام الديات لحمة حتى "لا يطل دم في الإسلام" كما قال عليه الصلاة والسلام، فعاقلة الجاني أهله أو قبيلته تسدد الدين ليتحمل عدد أكبر من قومه مسئولية تضمين الضرر، ثم إن مقدار الدية واحدة في شأن الأمير – ولو كان خليفة المسلمين – وفي شأن رجل من السوقة، كلهم عند الله سواء.

٢٤- ونظام القسامة لحمة تحفظ أمن الجماعة، وتضمن ما أحدثه المجهول من ضرر، إذ يحلف خمسون من أهل المحلة التي وقع فيها القتل، يختارهم ولي الدم، وهو لا يختار إلا الكبراء والأثرياء أنهم ما قتلوا، ولا علموا بالقاتل، وبعد ذلك تحق عليهم دية القتيل، ومن نكل منهم يحبس حتى يحلف وإن لم يتم العدد تكرر الحلف حتى تتم أيمان خمسون. وإن كان القتل خطأ من معلوم دفعت عاقلته الدية.

٢٥- ومن أوليات النظام الفقهي أن يتحمل من أحدث ضررا بإنسان مسئولية تضمينه دون أن يلتزم بإثبات خطأ من الجاني.

وبهذه البديهية الإسلامية يتجلى النظام الشرعي الإسلامي بوجهه الإنساني الذي تحاول أمم الغرب أن تبلغ بعضه، وما هي ببالغة.

٢٦- وأي إنسانية كإنسانية خليفة المسلمين على رأس القرن الأول: عمر بن عبد العزيز (٩٨ – ١٠١هـ) كتب إليه عامله في أحد الأصقاع أنه لم يجد فقراء يقسم عليهم حقوقهم، فكتب إليه: أنفقها في عنق الرقيق. فأعتق. واستمر الوالي ينفق وتبقى بقية ويسأل حتى أجابه أمير المؤمنين: "أنفقها في جزيرة من لم يستطع دفع الجزيرة من أهل الذمة" فهو هنا يؤثر بالصدقة حق أهل الذمة على بيت مال المسلمين.

٢٧- وإلى جوار الإنسانية من الدولة ومن الأفراد واجب الضيافة الذي يجعل الغريب كالقريب، يقول رسول الله ﷺ "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، جائزته يوم وليلة" والضيافة ثلاثة أيام فيما بعد ذلك، بل يقول ابن حزم (٤٥٦) عن ذلك: "فرض على البدوي والحضري، والفقيه والجاهل: يوم مبرة وإتحاف، ثم ثلاثة أيام ضيافة، فإن منع "هذا الحق" أخذها المرء ممن منعها بالقوة، وكيف أمكنه، أو يقضي له بها القاضي".

٢٨- ويرتفع مستوى الصدقات إلى مستوى الكفارات، وهي أحكام يقضي بها القضاء، وكلها للضعفة أو العجزة من الناس، وفي الطعام واللباس والإعتاق، وكثرتها توجب تكاثر الإنفاق. ومنه ما هو إطعام ستين كحالة الإفطار العمد، وحالة الظهار "القسم على الزوجة بتشبيهها بالأم أو الأخت" ومنه ما هو إطعام عشرة أو كسوتهم وهو كفارة اليمين، ومنه ما هو مرسل لمن شاء وكما شاء المكفر، وكلها تذكر بحق الفقير، والإطعام والكسوة والإكرام قاسم مشترك فيها.

٢٩- ولو استقصى الباحث معاني التعاون لما وقف عند حد في السرد أو في العدد. وحسبنا هنا أن نورد سؤالا وجوابه لأحمد بن حنبل، إذ سئل: الرجل يكون له عقار يستغله، أو ضيعة تساوي عشرة آلاف درهم أو أقل من ذلك أو أكثر، ولكنها لا تقيمه؟، وأجاب يأخذ من الزكاة، وقرأ حديثه - ﷺ -: "ليس المسكين الذي ترده الأكلة والأكلتان، ولكن المسكين الذي له غنى، ويستحي أن يسأل الناس إلحافا"[١١٧].

وفي موطأ مالك: "ليس المسكين الذي يطوف على الناس فترده اللقمة أو اللقمتان، ولكن المسكين الذي لا يجد له غنى يغنيه، ولا يفطن له فيتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس".

وبهذا تتضح مكانة الإنفاق التطوعي في الاقتصاد الإسلامي، وعليه شواهد تملأ أنهار الصحف اليومية الآن.

٣٠- أما سؤال الناس فحكمه وارد في السنة الشريفة، وهي توجب العمل لابتغاء رزق الله، ولما علم رسول الله صاحبا له أن يجمع الحطب ليعيش بدلا من أن يسأل الناس أنهى تعليمه بقوله له: "هذا خير من أن تجئ المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة"، وهو عليه الصلاة والسلام يقول "السؤال آخر كسب العبد"، وفيما عددناه من أنواع الاستقراء ما يهدي إلى اتساع التعاون لغير ما ذكرنا.

---

(١١٧) الآية ٢٧٣ من سورة البقرة: ﴿**لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنْ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ**﴾

الفرع الثالث

الصدقات تعاون مستمر ومال سائل

المبحث الأول

الصدقات تعاون مستمر ومال سائل

يقول ﷺ "كل معروف صدقة" والمسلمون مأمورون بأن يتداعى المسلم إلى المسلم كما يتداعى أعضاء الجسد بالسهر والحمى، وهذا تكافل يهدف إلى التكامل.

ومن ذلك أن يلقى المسلم السلام ولو على قوم لئام، والبدار به خير، وأن يلقى المرء غيره بوجه طلق، وأن الصدقة الخفية احب إلى الله من الصدقة المعلنة، ولا يدرك كثيرون "القيمة الاقتصادية" لهذا المقدار من وثاقه العلاقة بين أفراد المجتمع، في حين يدخل الجار في أمم الغرب داره غير عابئ بما أصاب جاره في هذه الدار.

والصدقات في المجتمع الإسلامي رافد اقتصادي يصب في بحر العلاقات الذي يتدفق في المجتمعات الإسلامية، سواء بالعمل المالي أو العمل الإنساني الذي لا يحسب أو يعد كالنقد، وإنما يوزن بمقداره من التعاون والتواصل بالجاه أو بالمال أو بالعلم أو بمودة القلوب، وبسمة الوجوه، ومظاهر الرضا والشكر.

وعندما يصبح إسداء المعروف عادة يتأكد بها ركن من أركان العبادة. هو ذكر الله على أوسع نطاق. وهو جل شأنه القائل: ﴿ **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ** ﴾ (١١٨).

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ الْعَفْوَ** ﴾ (١١٩)، ويقول: ﴿ **خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِينَ** ﴾(١٢٠)، ويقول ﴿ **وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنْ النَّاسِ**﴾(١٢١)، ويقول: ﴿ **وَلا تَنسَوْا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ** ﴾ (١٢٢)، ويقول: ﴿ **إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ**

---

(١١٨) سورة البقرة، الآية: ١٥٢.

(١١٩) سورة البقرة، الآية ٢١٩.

(١٢٠) سورة الأعراف، الآية ١٩٩.

(١٢١) سورة آل عمران، الآية ١٣٤.

مَنْ يَشَاءُ ﴾ [١٢٣]، ومن العفو والفضل ينبع المعروف ويجري بين الناس، ويعود الإنفاق على المنفق بنصيبه من فضل الله على عباده في دنياهم وآخرتهم، ذلك بعض المعنى في قوله تعالى: ﴿ **وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ** ﴾ [١٢٤]، وهو تبارك وتعالى يقول: ﴿ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير﴾ [١٢٥].

وفي سورة النور قوله: ﴿**وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ [١٢٦].

والرسول الكريم يقول: "إن الله ليدفع بالصدقة ستين سيئة" وهذا رقم يدل على العدد قدر ما يدل على الكثرة.

والصدقات باب واحد من وجوه البر، ولما أجمل القرآن العبارة للتنبيه عليه كان يطلق للإنسان العنان في وجوهه، ولما فصل كان يأتي بالأمثال على سبيل لفت الأنظار للأولى بالإنفاق، يقول تبارك وتعالى: ﴿**لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُتَّقُونَ**﴾ [١٢٧].

فكل إجراء فيه نصفة أو مرحمة أو معونة أو تفريج كربة من الكرب أو تحية أو وجه مسرة أو إحسان في الطريقة أو إتقان في الأداء وجه من وجوه البر، فالمسلم مطالب بالبر بنفسه إذ ينجيها من العثرات، وبغيره من الناس، والمخلوقات حيوانات كانت أو جمادات.

---

(١٢٢) سورة البقرة، الآية ٢٣٧.

(١٢٣) سورة آل عمران، الآية ٧٣.

(١٢٤) سورة البقرة، الآية ٢٧٢.

(١٢٥) سورة فاطر، الآية ٣٢.

(١٢٦) سورة النور، الآية ٢٢.

(١٢٧) سورة البقرة، الآية ١٧٧.

والعطاء والجو والبر من صفات الخالق سبحانه..

وفي إنفاق الفضل إغراء للمنفق وللناس بتبادل المعروف، تدعوهم إلى أنبل ما وهب الله خلقه من الملكات.

ولدى كل مكفي فضل يزيد على حاجته تستحب النفس السوية أن ينال الناس منه، فهم كصاحب الفضل خلفاء الله تعالى في أرضه، وليس الفضل في "المال" وحده، بل منه "الجاه" و"الحكمة" و"المعرفة" و"المحبة" للناس و"الرحمة" بهم حتى كانت الكلمة الطيبة صدقة، والعمل بها أعظم منها.

ومن فضائل الإنفاق تعدد وجوهه قدر ما تتعدد وجوه الاشتراك مع الغير فيما يعالجه، وشموله للخير مع اختلاف المصادر أو المقادير أو الغايات أو الأوقات، كأنها روافد صغيرة أو كبيرة تصب في المجرى العميق من حاجات الضعفاء، ولكل قطرة فيها أثر، والثواب عليها مؤكد.

فهذان تياران يتواصلان بالخير في الأمة من حسن العطاء وحسن التلقي.

ولقد يكون إنفاق الفضل أعظم روافد الميزانية العامة للأمة لو أمكن حصره، وهو ليس مقصورا على عزها ومنعتها بل هو مستمر حيثما كان "خلق المسلم". إنه تعالى يعالج الأنفس بالعفو منها، أو بالعفو عنها أو بالإنفاق منها أوعليها في غير موضع من كتابه العزيز، وهو القائل: ﴿ **وَأَنفِقُوا خَيْراً لأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ (١٦) إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧)**﴾ [١٢٨]، والقائل: ﴿ **مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ** ﴾ [١٢٩].

ومع أن المسلم منهي عن الإسراف بوجه عام، فرسول الله يخص الخير بقوله: "ليس في

---

(١٢٨) سورة التغابن، الآيتان: ١٦، ١٧ وفي سورة البقرة: الآية ٢٤٥ ﴿من ذا يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون﴾

(١٢٩) سورة الحديد، الآية: ١١ وفي تفسيرها نقل الدكتور عبد الرحمن يسري في كتابه (قضايا اقتصادية وحرية معاصرة)، عن عبد الله بن مسعود "لما نزلت هذه الآية قال أبو الدحداح الأنصاري: يا رسول الله وإن الله يريد منا القرض؟ قال: "نعم يا أبا الدحداح. "قال: أرني يدك يا رسول الله فناوله يده قال. قال: أقرضت ربي حائطي. وبه حائط (حديقة) فيه ستمائة نخلة، وكانت أم الدحداح فيه وعيالهما، فجاء أبو الدحداح فناداها: يا أم الدحداح قالت لبيك. قال أخرجي فقد أقرضته ربي عز وجل. وقيل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "رب نخلة مدلاة عروقها در وياقوت لأبي الدحداح في الجنة".

الخير إسراف" – والصحة تعدى كما يعدي المرض، وللقدوة أثرها في تربية الأمة.

***

ومن الفقه ما يمنع بيع الدار لسداد الدين، ويأذن لصاحبها أن يسدد من مال الزكاة أو من الصدقة، ومنه ما هو أوسع فيعطي الفقير المطعم والملبس وسائر ما لابد منه، ليعود إلى حاله مالكا كان أو غير مالك.

والإمام الشافعي يرى جواز إعطاء نفقة العمر، وتكرار الصدقة لواحد بعينه واجب مدام يستحق، فقد أعطى أمير المؤمنين عمر وقال: كرروا عليهم الصدقة، ولأكررن وإن راحت عليهم مائة من الإبل.

وكان عمر بن عبد العزيز يسأل أشياخه فيمن يستحقون الصدقة، فكتب إليه ابن شهاب الزهري يعدد أصناف المستحقين حتى وصل إلى من به عاهة في "عمله" أو في إبان "جهاده" وأضاف السائلين حتى "لا يحتاجوا للسؤال" فهذا منع للفقر قبل أن يقع.

ولعمر بن عبد العزيز نصان: أمر واليه (عدي بن أرطأة) أن يقرأهما على الناس ليصبحوا على بينة منهما فيطلبوهما لأنفسهم من المسئولين.

١- (انظر من عندك من أهل الذمة وولت عنه المكاسب فأجر عليه من بيت المال ما يصلحه).

٢- (وقد بلغني أن أمير المؤمنين عمر مر بشيخ من أهل المدينة يسأل على أبواب الناس فقال: "ما أنصفناك، أخذنا منك الجزية في سنيك الأولى، ثم ضيعناك في كبرك" وأخذه إلى بيت المال وفرض له ما يكفيه).

على هذا ذهب بعض أهل الفقه إلى حق أهل الذمة في الزكاة.

٣- وكتب عمر بن عبد العزيز إلى واليه وقاضيه على المدينة أبي بكر بن حزم: (من هلك وعليه دين لم يكن في خرفة "سعة" فاقض دينه من بيت مال المسلمين).

والمسلمون مأمورن بسداد دين المدين من سهم الغارمين في الزكاة إن عجز عن السداد حين نقرأ في الشريعة الرومانية منذ الألواح الاثني عشر النص التالي: (إذا عجز المدين عن سداد دينه يسترق إن كان حرا، أو بحبس أو يقتل إن كان رقيقا).

المبحث الثاني

زكاة التجارة

حسبنا كلمات قليلة تتصل (بفريضة الزكاة) في التجارة، وقد تتابع الأمر بالصدقة من أول نزول القرآن بمكة، مقترنة بالصلاة، لكن الآية التي انتظمت أحكام الزكاة جاءت في سورة التوبة: ﴿**إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنْ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ (١٣٠) ويقول تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنْ الأَرْضِ** ﴾ (١٣١)، وهذا نص في وجوب الزكاة على "كل" مال يكتسب من حلال، ورووا عن سمرة بن جندب: "كان رسول الله يأمرنا أن نخرج الصدقة مما نعد للبيع".

ويشترط لذلك شروط زكاة النقود: من حولان الحول، وبلوغ النصاب المعين – وهو ما يعادل ٨٥ جراما من الذهب – والفراغ من الدين، والفضل عن الحوائج الأصلية، كما يشترط أن يكون العمل بالبيع والشراء بقصد الربح.

والمراد بالسلعة التجارية: السلعة التي أعدت للبيع والشراء لأجل الربح، لا المباني أو الأثاث أو الأدوات أو السجلات ونحوها مما ليس معدا للبيع والشراء.

والتاجر المسلم يضم: رأس المال، والأرباح، والمدخرات، والديون غير الميئوس من سدادها، ويقوم ذلك مضافا إلى ما لديه من النقود، سواء أستغلها في التجارة أم لم يستغلها، ويستنزل من مجموع ذلك قيمة ديونه، ثم يخرج الزكاة: ربع العشر ٢.٥%، فإذا أسند بدين كان ميئوسا منه زكاة.

والمعاملات بين أهل الذمة والمسلمين حلال إلا في السلع المحرمة، فالنبي عامل أهل خبير على أموالها بنصف ما يخرج منها، على أن يتعهدوها، فهذه شركة في الزرع والغرس، وفي الثمن.

---

(١٣٠) سورة التوبة، الآية: ٦٠.

(١٣١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٧.

والإمام أحمد يرى أن فصل المال الحرام من المال الحلال يجعل المالي الباقي حلالا.

***

لقد نشأ العالم الأوروبي نشأة وثنية تعبد الذات، أو تعبد القوى، أو تعبد الأصنام، وتعكس هذا ثقافة الإغريق والرومان. ثم سقطت روما سنة ٣٩٥م وانهارت الإمبراطورية سنة ٤٧٦م لتستغلظ بها ظلمات العصر الوسيط، وفيها انفجر الفجر بالإسلام وأشرقت شمس العلم وشنت أوربة الحروب الصليبية، وما تزال تشنها بالوثنية الظالمة لتستعمر الشعوب أو تستعبد الناس.

وفي أواخر القرن الثاني الميلادي قسم شارلمان ملك السموات والأرض مع الكنيسة.

وفي القرن الثامن عشر ازدهرت المعاملات، وكان الآراء (الفريوقراط) ما روج له في الاقتصاد آدم سميث (١٧٢٣ – ١٧٩٠) على أساس الحرية الكاملة في التعامل وفي التربح، فليس للمال – عند الأوربيين – رائحة وليس لغير صاحبه حق فيه.

وبدأ عصر الآلات في القرن التاسع عشر الميلادي، وراجت أسواق الاستعمار قرونا حتى أخذت المذاهب الهدامة في الانتشار "منذرة" بصراع الطبقات ودكتاتورية العمال. والتدخل الحكومي في النشاط الفردي، واستغل السوفيت حاجة الدول العربية إلى التسليح لخوض الحروب الأربعة التي فرضها على مصر الدفاع عن الأمة العربية في هذا القرن ابتداء من عام ١٩٤٨ إلى عام ١٩٧٣م.

ومنذ أوائل القرن الحالي نودي بقيام مؤسسات إسلامية للاقتصاد، ووجدت مصارف فيها فروع للاقتصاد الإسلامي تتنامى في جو غير موات لها يستبد به اقتصاد ربوي عالمي.

وسنرى في العصر الحالي لمجمع البحوث الإسلامية في الأزهر قرارات، وللمؤتمر العالمي قرارات، ولمجمع الفقه بجدة قرارات، لا تنظر للتفصيلات، وإنما تعني بالأصول وتعلن تكريم الخالق – سبحانه – للمسلمين بالوصف "الإنساني" للاقتصاد الإسلامي وتنبه على الحلال والحرام، ومنها ما ينص على الآداب الشرعية من الرفق والقناعة وعدم التدخل في شئون السوق إلا لخلل فيها.